صفحات من تاريخ القبط

الجيش القبطي الوطني

١٨٠٠ - ١٨١٤م

ⲠⲀⲈⲬⲈⲰⲚ ⲚⲢⲈⲘⲚⲬⲎⲘⲒ

القمص

متياس نصر منقريوس

الجيش القبطي الوطني

مايو ١٨٠٠ - سبتمبر ١٨١٤م

ϯⲗⲉⲝⲉⲱⲛ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

القمص متياس نصر منقريوس

اسم الكتـــاب: "الجيش القبطي الوطني"
اسم المؤلف: القمص متياس نصر منقريوس- كاهن كنيسة العذراء والبابا كيرلس عمود الإيمان بعزبة النخل.
النـاشـــــــر: "الكتيبة الطيبية"
أسرة تعني باستعادة بناء الهوية المصرية "القبطية".
الطبعة الأولى: طوبى ١٧٢٣ش- يناير ٢٠٠٧م.
المطبـــــعة: بي إتشرو **ΠΙϬΡΟ**. ت: ٤٩٣١٨٣٥
رقم الإيـــداع: ٣٠٦٧ / ٢٠٠٧



البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

وسائر أفريقيا وبلاد المهجر

تقديم*

هذا الجيش:

"إنه أول جيش كُوِّن من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة،..

"لقد كان وجود الفرقة القبطية أول شرط أساسي يُمَكّن رجلاً من أفراد الأمة المصرية- (المعلم يعقوب حنا)، يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة- من أن يكون له أثر في أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادا،

"وبغير هذه القوة (الجيش) يبقى المصريون حيثما كانوا بالأمس: الصبر على مضض، أو الالتجاء لوساطة المشايخ، أو الهياج الشعبي الذي لا يؤدى لتغيير جوهري، والذي يدفعون هم ثمنه دون سواهم.

هذا الجيش:

".. يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد في تقرير مصير البلاد بدلا من أن يبقى حظهم كما كان في الحوادث الماضية مقصورا على التفرج أو الاشتراك في نهب المهزومين".

محمد شفيق غربال

---

* محمد شفيق غربال: "الجنرال يعقوب والفارس لاسكارس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١".

مقدمة

"مصر التي في خاطري وفي دمي":

دفعتني الغيرة على وطني "مصر"، ان اكتب عن صفحة مشرفه من صفحات تاريخ القبط، بعد حملات التشكيك في وطنيتهم، لاسيما مع التاريخ الذي اكتنفه الكثير من التزييف المهدَّف، وبعد أن روج البعض لفكرة أن يحكم مصر مسلم ماليزي[1] أو تركي أو فارسي لهو أوقع من أن يحكمها مصري "غير مسلم"، غير عابئين من مغبة نشر هذا الفكر.

بل غالى البعض الآخر في سب مصر، وشعبها الأصيل، بدعوى أن "انتماءنا" يجب أن يكون انتماءً دينياً أولاً- وهي الفكرة التي روِّج لها في منتصف القرن المنصرم بمصر من بعض الجماعات!!- ثم انتماءً للعروبة- وهي الفكرة التي تبنتها ثورة يوليو، ولم تكن في العصر السابق للثورة (الليبرالي).

فالتاريخ يعيد نفسه، فها هو السيد عمر مكرم- نقيب الأشراف- يتحالف مع الأتراك والمغاربة، والمماليك، والعربان- وجميعهم ليسو من ذوي الدم المصري- ويسمع بأذنه نصوح باشا- الذي صاح أمامه للعامة- "اقتلوا النصارى، وجاهدوا فيهم" .. حتى صاروا يهجمون على بيوت الأقباط "المصريين" ويقتلون من يقابلهم من الرجال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون الفتيات الصغيرات". (هذا الخبر نقله لنا مؤرخ مسلم- هو عبد الرحمن الجبرتي- دونما أي مواربة، أو تزييف للحقائق)، غير أن الشيء الوحيد الذي جعل منه بطلاً - تدرَّس سيرته لأطفالنا- هو أنه استطاع أن يلعب بوتر الدين ويجمع كل هؤلاء تحت راية واحدة، بزعم أن حكم المماليك تحت زعامة الأتراك العثمانيين أفضل من حكم مصريين (غير مسلمين)، بمساعدة جيش متمدين (كافر).

هذا الكتاب:

وقد اخترت موضوع هذا الكتاب لكي أسلط الضوء على فترة من الفترات العصيبة التي اجتاحت مصر، مسترشداً بالمؤرخين المنصفين، تصويباً للتاريخ، ودرءً لأي شكوك في وطنيتنا، ومن ذا الذي سيشكك في أهل البلاد الأصليين؟!!

---

[1] صرح أحدهم أن "الجنسية هي الإسلام.. وياريت مسلمو ماليزيا يحكمونا! الأتراك كانوا دولة خلافة.. وكونها فاسدة لا يجعلها احتلالاً"، وأضاف سباً نعف عن ذكره في هذا المجال!!

ولسوف يتبين للقارئ العزيز- بعد تصفحه لهذا الكتاب- أن اسم الكتاب- الذي يبدو للوهلة الأولى أنه لا يخلو من العنصرية- إنما هو اسمٌ تاريخيٌ تضمنته المصادر التاريخية، حيث أن هذا الفيلق (الجيش) القبطي، كان يحوي بين صفوفه مسلمين مخلصين للوطن، وكذا الوفد الذي آمن بفكرة استقلال مصر بمساعدة الدول العظمى آنذاك (إنجلترا وفرنسا)، كان من بينهم أيضاً مسلمون وطنيون.

رفاعة الطهطاوي:

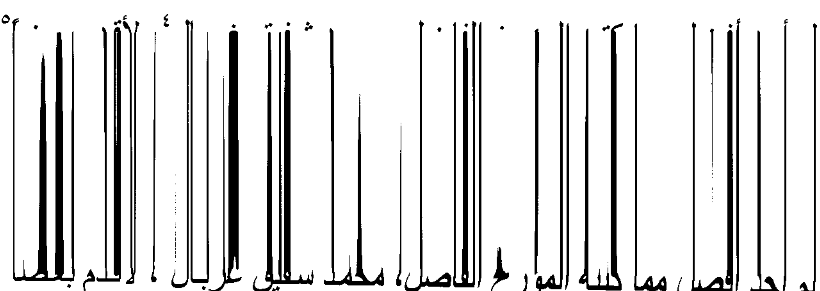
ومن سخرية القدر أن يتبنى فكر التمدين- الذي استقاه يعقوب من الفرنجة قبل ربع قرن من الزمن ونادى به رائد المدنية الحديثة "رفاعة الطهطاوي"، حيث تعلمه- ضمن من تعلموا من بعثة الطلبة المصريين سنة ١٨٢٦م- في باريس علي يد "شاعر جاء صبياً مع هجرة يعقوب ونبغ في باريس اسمه "يوسف أجوب Agoub" قام بتدريسهم الفرنسية، وتأثر بفكره رفاعة الطهطاوي وترجم بعض شعره ونثره"[٢].

أتمنى أن يستحوذ هذا الكتاب على اهتمام القارئ المهتم والمعتز بمصريته، ذلك الوطن الذي يعيش فينا، وليس فقط نعيش فيه[٣].

[2] أنور لوقا- الدكتور- موسوعة "من تراث القبط"- المجلد الأول- الملحق الأول، ص٢٤٦.

[3] قداسة البابا شنودة الثالث: "إن مصر ليس وطناً نعيش فيه، بل وطنٌ يعيش فينا"

تمهيد


لم أجد أفضل مما كتبه المؤرخ الفاضل، محمد شفيق غربال[4]، لأقدم بعضاً[5]

منه، ليكون تمهيداً لهذه الدراسة، حتى يتسنى للقارئ فهم الأحداث التي تسببت في تأسيس هذه القوة المصرية الصميمة التي قال عنها هو نفسه: "إنه أول جيش كُوِّن من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة"، من أجل تحقيق استقلال مصري كامل.

الجنرال يعقوب ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ م

محمد شفيق غربال

لماذا مصر؟!

اصطدم المماليك في صيف ١٧٩٨ بغرب غير الغرب الذي عرفوه أيام الحروب الصليبية وسرعان ما رأوا أن لا أساس لما زعموه من أنه "إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون في قابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم"[6]، وتمكن الفرنسيون من احتلال مصر وحكم الفرنسيون مصر مدة تزيد قليلاً على ثلاثة أعوام، وقد تخللت هذه المدة محاولة من جانبهم لفتح الولايات السورية وضيق عليهم أثناءها حصار بحري إنجليزي وقام المصريون على حكمهم كلما أمكن ذلك وأباد منهم الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية عدداً لا يستهان به. وظل مراد ومماليكه ومن انضم إليه من عرب مصر والجزيرة العربية شهوراً عديدة ينازعونهم دارفوز وسنار وفزان برقة وغيرهما من بلاد المغرب. ولم تطب للفرنسيين الإقامة بمصر فقد وجدوها دون ما توقعوا وشق عليهم البعد عن وطنهم وبخاصة بعد ما بلغهم من تألب الدول الأوربية من جديد ضد فرنسا وإرغامها على التخلي عن فتوحها في إيطاليا وغيرها، وحتى مصر نفسها، عرفوا معرفة أكيدة أن السلطان قد اعتزم ألا يتخلى عنها، وأرسل نحوها من ناحيتي البحر والشام جموعاً من جنده قد لا تكون قيمتها الحربية مما يأبه له الغربيون ولكنها، ولابد لها مع الزمن أثر.

---

[4] قامت "دار المعارف" بنشر هذا الكتاب عام ١٩٣٦م.

[5] العناوين الجانبية من إضافتنا نحن، وقد قمنا بإدراج الحواشي المذكورة في المتن الأصلي أسفل المتن، لذا لزم التنويه.

[6] الجبرتي: حوادث المحرم ١٢١٣.

جمهورية مصر:

ولا يمكن الشك في أن الفرنسيين لو خلص لهم مُلك مصر لحكموها كما ينتظر من حكومة جمهورية قائمة على قواعد الثورة الفرنسية أتيح لها في عصر بدأ فيه الانقلاب الاقتصادي الكبير أن تحكم قطراً زراعياً خصباً ذا مركز جغرافي فذ كوادي النيل، وأمة ذات تاريخ مفعم بعبير الدهر كالأمة المصرية لو خلص لهم حكم مصر لبذلوا جهداً صادقاً في تنمية الموارد بتنظيم الري وضبط النيل وقد كتب بونابرت في مذكراته فصلا رائعاً عن ضبط النيل بإنشاء سدين على فرعيه عند رأس الدلتا...

ولو دام الاحتلال الفرنسي لسلك نحو المصريين مسلكا يكون من أثره تحسين كثير من أحوالهم بحكم منفعتهم حفظاً للقوى العاملة في الإنتاج الزراعي الذي يغذى الخزانة. ولو دام الاحتلال الفرنسي لاعتمد بعض الاعتماد في **الدفاع عن البلاد على جيش وطني من أبنائها**.

أما عن نظام الحكم المنتظر من الاحتلال الفرنسي لو أن أيامه دامت أن يبقى حكم القرى على ما عرفته مصر في عصورها المختلفة في أيدي العمد والمشايخ، وأن يعهد للفرنسيين في إدارة الأقاليم وأن تسود المركزية الشديدة وأن يبقى الفرنسيون على الدواوين التي أنشاها فعلا بونابرت ولم يرم بها على خلق النظام البرلماني كما توهم البعض فبونابرت لم يكن مما يعجبون به أو يرتضيه لفرنسا دع عنك مصر بل رمى بها إلى إنشاء وسائل تمكنه من الاتصال بالزعماء المصريين وتفهم ما يجرى في نفوسهم وتفهيمهم حقيقة مشروعاته ونواياه حتى لا يبقى مجال لدس الدساسين ولا لسوء الفهم.

"الانقلاب" على الطريقة الفرنسية!

هذا بعض ما نتصوره عن تطور الحكم الفرنسي في مصر لو استقام للفرنسيين أمرها وليس هذا التصور مما يخلو من الفائدة التاريخية أو مما لا يقوم على أساس من الواقع فأكثره مستمد مما كتبه بونابرت وغيرها من نواياهم ومما شرعوا في تحقيقه فعلاً ومما رأيناه من طرق الحكم الفرنسي في غير مصر ولكن الزمن لم يتسع لتحقيق ما صورناه ووجد القواد الثلاثة الذين تعاقبوا على حكم مصر – بونابرت وكليبر ومينو – أنفسهم مضطرين لتوجيه كل جهدهم للتغلب على الأخطار الداخلية والخارجية المحدقة بجيشهم وحكمهم، ولم يكن ما قام به أولهم بونابرت وثالثهم مينو من التجارب الإدارية الأداة الحقيقة لحكم البلاد ولم تتغير في أيامهم كلها طرق الجباية ولا الضرائب ولا العمال بل ظلت كما كانت أيام المماليك

ولذلك لم تكن الأعوام الثلاثة التي قضاها الفرنسيون في حكم مصر عهداً سعيداً لسكانها حقيقة أن المصريين اعتادوا قبل قدومهم الانقلابات السياسية: اعتمادها أهل



عرفوها مما يصحبه الشيء الكثير من اختلال الأمن وضروب العنف والتعسف وإعادة الطلب عليهم فيما أدوه من الضرائب والمغارم. إلا أن هذه الانقلابات كلها كانت على نمط واحد. لا يأتي واحد منها بجديد ولا يصطدم بمألوف لديهم، فمثلا يتغلب على بك الكبير على خصومه ويحكم البلاد كما حكمها خصومه، ثم يتغلب عليه أبو الذهب ويحكم كما حكم على وهكذا دواليك.

أما الحكم الفرنسي فكان انقلابا من نوع لم يعرفه المصريون. إذ لما زال حكم مراد وإبراهيم حل محلهما بونابرت ولم يكن مسلماً ولا مملوكا.

حرية غير المسلمين إساءة للمسلمين!!

وفي أيام الاحتلال الفرنسي حرر غير المسلمين من وطنيين وأجانب أنفسهم من قيود مختلفة من المذلة كان المسلمون يعدونها إذ ذاك شرطا من شروط بقاء الإسلام وقد عرف بونابرت ما في هذا التحرر من إساءة للشعوب الإسلامية وبين في مذكراته تقديره أهمية هذا الأمر بياناً واضحا فقال "ولا فائدة في إظهارنا الاحترام العميق للدين الإسلامي إذا كنا نسمح للأقباط والروم والمسيحيين الغربيين بقدر من التحرر بغير منزلتهم الماضية وقد أردت أن يكونوا أكثر خضوعاً وأكثر احتراماً لكل ما يتعلق بالإسلام وبالمسلمين مما كانوا في الماضي"[7].

"تطور" غير مفهوم!

ولم يكن للحكم الفرنسي في مدته القصيرة وفي ظروف الحرب والفتن الملابسة له، من المآثر ما يحمل الخاصة والعامة من أهل مصر على الإغضاء عما صحبه من الانقلاب الاجتماعي فقد كان حكما عسكرياً شديداً عنيفاً، ولم يكن الإصلاح الذي فكر فيه الفرنسيون، وما استحدثوه من الدواوين وغيرها، والبحث العلمي الذي شرعوا في إقامة قواعده مما يجتذب إليهم المحكومين إلا بعد زمن طويل ذلك لأن النظم الحكومية التي اعتادها المصريون وغيرهم من أهل الشرق في آخر القرن الثامن عشر كانت ترمى لإغراض ثلاثة أساسية:

---

[7] نجد في الجبرتي تأييداً لصدق هذه الرغبة فيذكر في حوادث رمضان سنة ١٢١٣ (رجوع نصارى الشوام إلى لبس العمائم السود والزرق وإلى ترك لبس العمائم البيض والشيلان الكشميري الملونة والمشجرات وذلك بمنع الفرنسيين لهم من ذلك ونبهوا (أي الفرنسيون) أيضا بالمناداة في أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولاً ولا يتجاهرون بالأكل والشرب في الأسواق ولا يشربون الدخان..)

جمع الأموال المفروضة
والأيدي العاملة اللازمة للأعمال العامة
واستتباب الأمن

وفيما عدا هذه الأمور الثلاثة لا تتدخل الحكومة في أحوال الرعية، بل تدع كل ما لا يتعلق من هذه الأحوال بأغراضها تنظمها الجماعات أو لا تنظمها كما جرت به العادات. وإذا شئنا إجمال وصف ما اختص به نظام الحكم المملوكي، قلنا أنه يمتاز بقلة التدخل الحكومي وبالعنف والتعسف ويجب ألا يحملنا ما نراه من جنوح الحكام لهذا العنف والتعسف إلى تصور نظم الحكم على غير ما صورناها من ترك الرعية وشأنها في ما لم يتعلق بأغراض الحكومة الأساسية، ويجب كذلك ألا يحملنا ما نسمع عنه من الظلم على الظن بأنه لم تكن أمام المحكومين وسائل مختلفة لتجنبه أو لتخفيفه فإن ارتباك الإدارة الذي نجم عن الانقلابات المتتابعة، وسوء ذمة العمال، وفوضى السجلات، وما إلى ذلك فتح للرعية أبواب الخلاص من الفرض والغرامات المختلفة سواء منها الشرعية وغير الشرعية.

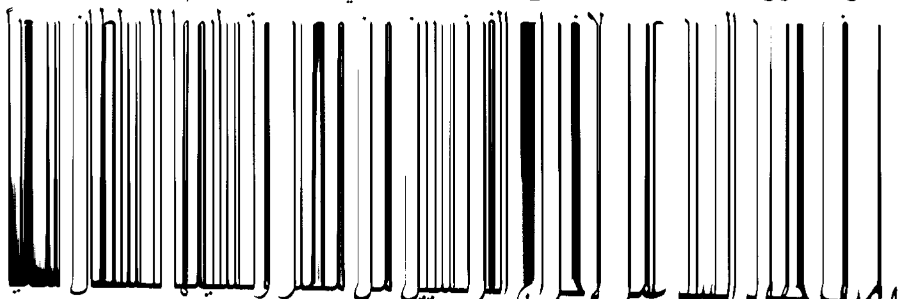
لا ننتظر إذن أن يرحب المصريون في ١٧٩٨ بالتدخل الحكومي وبما يصحبه من النظم الدقيقة ولا أن يعدوها- كما نعدها الآن- ضماناً لحقوقهم لأنه على العكس كرهوا ضبط الدفاتر، واعتبروه اشتطاطا في الطلب، ولم يروا فيما اتخذته الحكومة من الوسائل لمنع الأمراض، كتخطيط المدن من جديد، ومنع الدفن فيها حيثما اتفق، وكنس الطرقات، وعزل المرضى عن الأصحاء إلا استبداداً لا يطاق.

كره المصريون الحكم الفرنسي وقاوموه، وثار أهل القاهرة ثورتين عنيفتين وقام الفلاحون في الأقاليم بمثلهما كلما أتيحت لهم فرصة، وقد ذكرنا من الأسباب ما يكفي لتفسير هذا الكره. والتاريخ الصحيح لا يجد في الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم باعثاً إيجابياً واحداً، وإنما هي الرغبة في العودة لما ألفه الناس، ولا يمكن تسمية ما ألفوه استقلالا إنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية.

عمر مكرم.. "نقيب الأشراف"

وصفنا الفتن بأنها كانت شعبية كرهها كبار العلماء دون أن يحبوا الحكم الفرنسي وحاولوا أن يقوا الناس أذى بطش الفرنسيين فكان موقفهم في أيام الاحتلال الفرنسي هو نفس موقفهم في الانقلابات الماضية إذ أن منهم ومن كبار الخاصة من عمل على التخلص من الحكم الفرنسي وإعادة الحالة التي سبقته. يذكر التاريخ مثلا السيد عمر مكرم الذي ترك مصر عند الاحتلال الفرنسي واشترك في ثورة القاهرة الثانية عند قدوم الجيش العثماني لتسلم البلاد من الفرنسيين بحسب اتفاق العريش وكان للسيد عمر فيما بعد نصيب في قيام العامة على خورشيد باشا الوالي العثماني

وتنصيب محمد على واليا على مصر. وجرى له أثناء هذه الحوادث حديث مع مندوب خورشيد باشا ينص على حق الرعية في مقاومة الظلم[8] ولكن لا يمكن



لاستقلال مصر. والظاهر أن السيد عمر كان على جانب من علو الهمة وقوة الشخصية بعثه على العمل للنفوذ السياسي وقد رأى عاقبة أطماعه لما حاول أن يتحكم في محمد على كما تحكم في خورشيد من قبل فذاق النفي عن القاهرة وإنهاء حياته السياسية[9].

وظهر في هذه الفتنة أيضا السيد السادات وكان من أكثر العلماء نفوراً من الفرنسيين وما أحدثوه، ومن أشدهم سعياً لإعادة الحكم العثماني ثم تبين له خطوة عند فرار الجيش العثماني بعد هزيمته في واقعة المرج أو هليوبوليس وترك رجال الدولة العثمانية أهل القاهرة وشأنهم مع الفرنسيين بعد أن أثاروهم وحمسوهم. فكتب لعثمان كتخدا كتاباً جاء فيه: "ألزمتهم الغنى والفقير والكبير والصغير إطعام عسكركم الذي أوقع بالمؤمنين الذل وبلغ النهب غاية الغايات فكان جهادكم في أماكن الموبقات والملاهي. أخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة ثم فررتم فرار الفيران من السنور"[10].

وتبين لأهل القاهرة بعد هذه الفتنة كما سيتبين لهم بعد جلاء الجيش الفرنسي أنهم كانوا مخدوعين في قيامهم على الحكم الفرنسي من أجل العثمانيين وأنهم كانوا في فتنتهم ضحية (الدجاجلة) كما سماهم الجبرتي الذي اختص منهم رجلاً مغربياً لا ناقة له فيها ولا جمل يدعو للجهاد ويحرص على الابتعاد عن مواطن القتال، يهدد من يتكلم في الصلح برمي العنق[11].

مصري واحد يفكر في الاستقلال:

إذن لا يرى التاريخ الصحيح في موقف العامة وزعمائها وأهل الرأي فيها أثرا لفكرة الاستقلال الوطني ولا يسجل إلا لمصري واحد من أهل هذا العصر فضل اعتبار الاحتلال الفرنسي لا فترة نحس يرجى زوالها وعود ما سبقها بل بدء حياة جديدة لمصر والمصريين مهدت لها لحملة الفرنسية بقطع التبعية العثمانية وهدم قوة المماليك وذلك المصري هو **المعلم يعقوب حنا**.

---

[8] الجبرتي في حوادث صفر ١٥٥٠

[9] الجبرتي: في حوادث جماد الأولى والثانية سنة ١٢٢٤.

[10] الجبرتي حوادث شوال وذي القعدة ١٢١٤.

[11] الجبرتي حوادث شوال ١٢١٤.

لا أحب أن أغلو فأزعم أن **يعقوب** فهم تماماً كل الاحتمالات التي انطوى عليها هدم النظم القائمة في مصر وحكم أمة غريبة لها أو أنه تحول في هذه الأشهر القليلة التي قضاها مخالطاً للفرنسيين من جاب من جباة الأموال نشأ ودرج في بيت من بيوت الأمراء المماليك في النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى داع من دعاة الحركات الوطنية التي يعرفها الغرب في القرن التاسع عشر، بل أجد **يعقوب** يحتفظ حتى بعد مخالطة الفرنسيين ببعض صفات الجباة وعملا الإدارة المالية في أبناء طائفته في ذلك الوقت.

يذكر الجبرتي عنه تأييده الحكم الفرنسي أثناء ثورة القاهرة الثانية بينما الرؤساء الأقباط الآخرون بما فيهم أكبرهم جميعاً جرجس جوهري يدارون الثوار ويمدونهم بالمال واللوازم صيانة لأرواحهم لا عطفا على حركتهم "أما **يعقوب** فإنه عسكر في داره بالدرب الواسع جهة الرويعي واستعد استعدادا كبيرا **بالعسكر والسلاح وتحصن بقلعته** التي كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أي ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت) فكان معظم حربه مع حسن بك الجداوي"[١٢].

تحصين القاهرة:

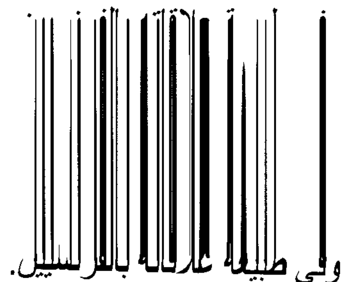
ويصف الجبرتي اهتمام **يعقوب** بتحصين القاهرة عند اقتراب العثمانيين منها للمرة الثانية، في الأيام الأخيرة من العهد الفرنسي فيقول: "في عشرينه توكل رجل قبطي يدعى عبد الله من طرف **يعقوب** يجمع طائفة والناس للعمل في المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على داوبهم، وسب وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه، فتشكى الناس من ذلك القبطي ورفعوا شكواهم إلى بليار قائمقام فأمر بالقبض على ذلك القبطي وحبسه بالقلعة"[١٣].

مشروع يعقوب من أجل الاستقلال:

ولكن القارئ لا يجد في الجبرتي ولا غيره أن **يعقوب** في سنة ١٨٠١ لما انتهي الاحتلال الفرنسي هاجر وتبع الجيش الفرنسي إلى فرنسا لتحقيق مشروع خطير هو الحصول على اعتراف الدول باستقلال مصر.

[١٢] الجبرتي في حوادث شوال سنة ١٢١٤
[١٣] الجبرتي المحرم سنة ١٢١٦

عثرت على الأوراق الخاصة بهذا في سجلات وزارتي الخارجية الإنجليزية والفرنسية[14]، وبدأت بعد العثور على هذه الأوراق في تكوين رأى آخر في **يعقوب**



وفي طبيعة علاقاته بالفرنسيين.

خدمات **يعقوب** للحكم الفرنسي من نوعين: خدمات من نوع ما كان قوم به للفرنسيين جرجس جوهري ومطلي وأبو طاقية وغيرهم من كبار الأقباط أساسها السعي للنفع الشخصي من جهة والخلاص مما كانوا فيه من امتهان لا يرفعهم من حضيضه ما ملكوه من مال وجاه ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام إليهم، وخدمات من نوع آخر أساسها التمهيد لمستقبل البلاد السياسي بالتعضيد المؤقت للحكم الغربي).

ومن يحقق في أحوال الشعوب الشرقية الخاضعة لحكم السلطان العثماني أثناء القرن التاسع عشر لا يجد أن الطوائف الغير إسلامية منها نظرت في أول الأمر للتدخل الغربي في شئونها بالعين التي نظر بها إليها **يعقوب** في آخر القرن الثامن عشر.

أول ما في تأييد **يعقوب** للتدخل الغربي تخليص وطنه من حكم لا هو عثماني ولا هو مملوكي وإنما هو مزيج من مساوئ الفوضى والعنف والإسراف ولا خير فيها للمحكومين ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة، فرأى **يعقوب** أن أي نوع من أنواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بونابرت.

وثاني ما في تأييده للاحتلال الفرنسي أنه أتاح فرصة الاتصال بالغرب والتعلم منه، ولا يقل عن هذا شأناً ـ في نظره ـ ما أتاحه هذا الاحتلال من إنشاء **قوة حربية مصرية (قبطية في ذلك العهد) مدربة على النظم العسكرية الغربية.**

---

[14] (هذه الوثائق أربعة الأولى كتاب بالإنجليزية من القبطان إدموندس للورد الأول للبحرية الإنجليزية مؤرخ عن جزيرة منورقة في ٤ أكتوبر ١٨٠١ يتضمن أحاديثه مع يعقوب في الطريق إلى فرنسا الثانية مذكرة مشروع استقلال مصر مكتوبة بالفرنسية وملحقة بالكتاب المذكور بقلم الفارس لاسكاريس والوثيقتان في أوراق وزارة الخارجية الإنجليزية بالدولة العثمانية تحت الرقم الآتي: F.O. 78. Turkey 33 (Septembe1801)–December والوثيقة الثالثة كتاب من لاسكاريس موقع عليه بتوقيع نمر أفندي للقنصل الأول بتاريخ أول فنديميير من السنة العاشرة (الموافقة ٢٣ سبتمبر ١٨٠١) والرابعة بنفس التوقيع والتاريخ لتليران وزير الخارجية والوثيقتان الثالثة والرابعة في سجل المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية في أوراق وزارة الخارجية الفرنسية في المجلد رقم ٢٠٣ وقد نقلهما الميسو أوربان في مقالة عن لاسكاريس في مجلة Mer Cure de fraance بتاريخ ١٥ يونيه ١٩٢٤ ص ٥٩٣ ـ ١٥٩٥ وقد حرف الميسو أوربان اسم الموقع إلى Hemir.

الفرقة القبطية:

وكان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط أساسي يمكن رجلاً من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر من أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها يعيثون فيها فساداً. على الرغم من أنه لا ينتمي لأهل السيف من المماليك والعثمانيين، وبغير هذه القوة يبقى المصريون حيثما كانوا بالأمس: الصبر على مضض أو الالتجاء لوساطة المشايخ أو الهياج الشعبي الذي لا يؤدي لتغيير جوهري، والذي يدفعون هم ثمنه دون سواهم، وهنا الفرق الأكبر بين **يعقوب** وعمر مكرم؛ **يعقوب** يرمي إلى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبي الذي تسهل إثارته ولا يسهل كبح جماحه والذي قد يصل سريعاً لتحقيق أغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسي الدائم المثمر. فكما أن العامة سريعة الهياج في أوقات الخلل واضطراب الحكم فهي أيضا سريعة القنوط خصوصا إذا اصطدمت بجند مسلحين حتى لو كان أولئك الجند من نوع ما كان في مصر في أوائل القرن التاسع عشر من ترك ومن ماثلهم.

بين عمر مكرم، ويعقوب حنا:

وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر لما وجد أمامه محمد على لا خورشيد. هذا الفرق بين الأداة التي اختارها **يعقوب** وتلك التي اختارها السيد عمر، ليس في الواقع إلا مظهراً لفروق أعمق إذ ما حاجة هذا السيد نقيب الأشراف إلى جيش، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان ولا يرمي إلى بعد ما أن يملي إرادته على القائمين بالأمر فيها مدافعاً عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد؟ وهو لهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء (أما **يعقوب** فله شأن آخر. إذ أنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تزامن لفئة من المصريين يد في تقرير مصير البلاد بدلاً من أن يبقى حظهم كما كان في الحوادث الماضية مقصوراً على التفرج أو الاشتراك في نهب المهزومين).

جيش مصري بأحدث النظم الحربية:

ذكر الجبرتي حوادث المحرم سنة ١٢١٨ في كلامه عن اشتباك الألبانيين بأتراك الوالي العثماني خسرو - ذلك الاشتباك الذي انتهي آخر الأمر بولاية محمد على - ذكر أن الألبانيين كانوا يقولوا للعامة من أهل القاهرة: "نحن مع بعضنا وأنتم رعية فلا علاقة بكم بنا، أنتم رعية تخضعون لمن ينتصر منا". أراد **يعقوب** أن

يكون الأمر غير ذلك. وعول على أن تكون القوة **الحربية المصرية** الجديدة مدربة على النظم الغربية فكان سباقا إلى تفهم الدرس الذي ألقاه انتصار الفرنسيين على



الغربيين في جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان كيف كان للاتصال بالفرنسيين هذا الأثر كله في نفس فرد واحد من أفراد الأمة في آخر القرن الثامن عشر؟ ذلك لأن **يعقوب** كان على استعداد لتعلم دروس الحملة الفرنسية وقد ثبت من القليل الذي وصل إلى علمنا من أخباره قبل ١٧٩٨ أن **يعقوب** لم يكن كغيره من المبرزين من أبناء طائفته في ذلك العهد وأن معاصريه منهم أحسوا باختلافه عنهم، وأثبتوا عليها شذوذه عن مألوفهم، ورواه عنهم المعمرون لصاحب تاريخ الأمة القبطية[15] يعقوب بك نخلة رفيلة المولود في غضون سنة ١٨٤٧ والمتوفي في أبريل ١٩٠٥.

يعقوب "محارب مصري":

رفض **يعقوب** إذن أن يلتزم الهدوء والصبر والاحتمال وفداء النفس والعرض ببذل المال وأحب أن يكون **رجل حرب**، وقد ثبت للتاريخ ميله أيام شبابه؟ لأعمال **القتال والفروسية** على طريقة المماليك واشترك أيام أن كان يدبر التزام سليمان بك الأغا في الصعيد في بعض **حروب** المماليك ضد جنود القبطان باشا حسن الذي نزل بمصر في ١٧٨٦ لتثبيت الحكم العثماني. واهتم بدراسة بعض تلك **الحروب** وأتقن أساليب المماليك في **ركوب الخيل واستعمال السيف**.

ثم جاء الفرنسيون وعين لمرافقة الجنرال ديزيه في فتح الصعيد وهنا أيضا رفض **يعقوب** أن يقتصر همه على ما عين له من تدبير المال والغذاء ونقل الرسائل بل **راقب سير الحرب، وحارب** مرة من المرات تحت عيني ديزيه نفسه على رأس طائفة من الفرسان الفرنسيين جماعة من المماليك وأبلى بلاءً حسناً حمل قائده على تقليده **سيفا** ولم يكن المعلمون الأقباط يقلدون السيوف بل يكسون الفراء أو ينفحون بالمال.

---

[15] قال صاحب هذا التاريخ "يظهر أن **يعقوب** لم يحترف بحرفة الكتاب في الدواوين مثل باقي عظماء أبناء أمته، بل كان من أصحاب الأملاك والتجارة) (الثابت غير هذا وهو أنه عمل في تدبير التزام سليمان بك الأغا في الوجه القبلي راجع (Homsy, Le genral Jacob. P17) وأنه سار في مسلكه إزاء الحكم الفرنسي (في خطة تخالف ما كان عليه أبناء جنسه من حيث الهدوء والسكينة والصبر والاحتمال وفداء أرواحهم وأعراضهم في بعض الأحوال ببذل المال والعطايا. فضلا عن مخالفته لهم في الزي والحركات يتخذ له امرأة من غير جنسه (سورية من حلب) بطريقة غير شرعية".

خبرات سياسية:

وتعلق **يعقوب** بديزيه- السلطان العادل كما سماه أهل الصعيد- تعلقا خالصا وكان لهذا الاتصال أثر كبير في تكوين **يعقوب** جديد قال بليار- وكان من ضابط ديزيه في حمله الصعيد - يصف فترة من الفترات التي انتهزها القائد لراحة عسكره: "أقمنا في أسيوط وكنا نجتمع كل مساء في منزل ديزيه، وكان أحاديثنا تدور حول موضوعات شتى. وكان كل منا يدلى برأي أو آراء في السلم و**الحرب** وفي النظم والتواريخ".

ولابد أن **يعقوب** استمع لكل ما كان يدور وفهم القدر الذي استطاع أن يفهمه ولابد أن ما استطاع أن يسمع أو يفهم أثار شتى الأفكار في نفسه وكشف له عن عامل من المعاني غير الذي نشأ فيه وعرفه ويعجز **يعقوب** عن الإفصاح عما يجول في خاطره ويقيض الله له رجلاً من أغرب أهل عصره يتولى عنه التعبير ذلك الرجل هو الفارس تيودور لاسكاريس دي فنتميل.

تيودور لاسكاريس

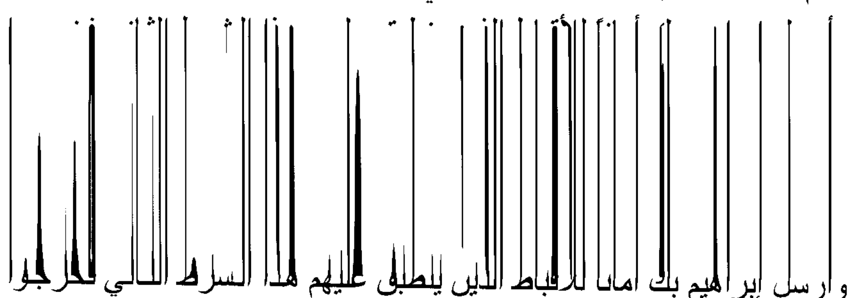
تيودور لاسكاريس من بيت إيطالي نبيل يتصل قديما بقياصرة بيزنطة. دخل هو، وأخوه في سلك فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يحكمون جزر مالطة إلى أن انتزعها بونابرت منهم في طريقه إلى مصر ١٧٩٨، تركها وتبع بونابرت على مصر. حيث تقلد بعض المناصب الإدارية، تعلم العربية وتزوج من قوقازية من جواري أحد الأمراء وأطلق لخياله العنان في هذا الوادي التاريخي الرحيب.

ورأى لاسكاريس أن مصر يجب أن تستقل وأنها خليقة بالاستقلال بحكم موقعها وتاريخها ومواردها. ورأى أن الحكومة الفرنسية يجب أن تعمل على تحقيق استقلال مصر إذا ما قررت الجلاء عنها بأن تقوي **الفرقة المصرية** تحت قيادة **يعقوب** وأن تعدها بحيث تكون العنصر المرجح في **تقاتل** العثمانيين والمماليك على تملك هذه البلاد وأشار أيضا بأن يترك الفرنسيون إذا ما اضطروا للجلاء **ذخيرة وقوة** فرنسية يظهرون أنها عصية ترفض الانسحاب مع بقية الجيش ويدعونها تنسحب نحو الأقاليم النوبية تفتحها وتهبط منها على مصر عند اللزوم.

جلاء الفرنسيين:

وجاء وقت الجلاء وسلمت الحامية الفرنسية المرابطة في القاهرة تحت قيادة الجنرال بليار المدينة للإنجليز والعثمانيين وكان من شروط التسليم أن يكون لأي

مصري أردا حق الخروج مع الجيش الفرنسي دون أن يتعرض أحد للاضطهاد ممن خدم السلطات الفرنسية وآثر أن يبقى في مصر بعد زوال أمرها.



وارسل إبراهيم بك أمانا للأقباط الذين يطلق عليهم هذا الشرط الثاني فخرجوا إليه وسلموا وعادوا إلى دورهم أما **يعقوب** فقد صمم على الرحيل مع الفرنسيين والظاهر أنه حالوا أن يستصحب عدداً كبيراً من شبان القبط الذين كانوا تحت قيادته، فقد جاء في الجبرتي في وقائع صفر ١٢١٦ "أما **يعقوب** فإنه خرج بمتاعه وعازقه وعدى إلى الروضة وكذلك جمع إليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفي وأجمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا إلى قامقام (أي بليار) وبكوا وولولا وراجعوه في إبقائهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقراء وأصحاب مصانع ما بين نجار وبناء وصائغ وغير ذلك فوعدهم بأنه يرسل إلى **يعقوب** أن لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه) ولم يخرج معه إلا أهله، زوجته مريم نعمه الله وبنته مريم وأخوه حنين وابنا أخته ولقبهما سيداروس. وكان من الخارجين بعض الأقباط وجماعة من المترجمين وبعض **المسلمين** ممن خاف على نفسه كعبد العال الأغا الذي طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه حمله وخرج أيضاً كثير من نصارى الشوام والأورام مثل ينى وبرطلمى (فرط الرمان) وغيرهما.

لم يبق **يعقوب** بمصر يعمل في تقرير مصيرها كما حسب وليس أمامنا إلا أن نعلل ذلك بأسباب لا بأس بها. أولها: ما رآه من تشتت **الجند القبطي** وعزم بنائيهم ونجاريهم على ترك الجندية والعودة لعيالهم. ثانيها: أن القيادة الفرنسية لم تعد شيئا ما لمستقبل **الفرقة القبطية**، ولا لمستقبل النفوذ الفرنسي في مصر.

بل كان أهمها الانسحاب وتنظيم هذا الانسحاب وربما كان سبب هذا الإهمال ما حدث من تقسيم الجيش الفرنسي إلى قسمين قسم يدافع عن القاهرة تحت قيادة بليار وآخر عن الإسكندرية تحت القائد العام مينو ثم أصبح الاتصال بين القسمين صعباً وسلم بليار القاهرة في اتفاق عقده مع الأعداء وأعقبه تسليم مينو. أما ثالث الأسباب فهو الهجرة لتحقيق مشروع خطير: **"السعي لدى الحكومات الأوربية لتحقيق استقلال مصر"** ولا أظن أن خروج **يعقوب** كان للخلاص بنفسه فمثله ممن يمكنهم تصفيه الحساب الماضي مع العثمانيين المنتصرين. وقد حاول القبطان باشا حسين أن يغريه بالبقاء في مصر ووعده ومناه ولكنه رفض وآثر الرحيل للعمل في ميدان جديد.

ركب **يعقوب** السفينة الحربية الإنجليزية بلاس وربانها إدموندس وكان على ظهرها أيضا الفارس لاسكاريس وقد عرف إدمودندس قدر **يعقوب** وأنه زعيم في عشيرته وأن الفرنسيين لقبوه **(جنرالا)** حرصا على نيل تأييده فأحسن لقاءه مما دعا **يعقوب** للتحدث معه في شئون مصر وقال له أنه يعتقد أن حكومة العثمانيين في

مصر أسوأ أنواع الحكم وأنه لم يؤيد الاحتلال الفرنسي إلا لتقليل ما حاق بمواطنيه من أذى وأنه صدق ما ادعاه الفرنسيون من أن دولتهم أقوى الدول الأوربية ولم يكن يدرك إذا ذلك مدى القوة البحرية الإنجليزية ثم قال أنه يرجو أن يسعى لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال بلادة وأن هجرته لأوربا قد تنفع في هذا السبيل، على أنه يعلم أن أدراك الغاية مستحيل بلا موافقة الحكومة الإنجليزية.

هذا مجمل ما قرره **يعقوب** لإدموندس وزاد عليه لاسكاريس وكان يترجم بين الرجلين أن **يعقوب** على رأس وفد مصري اختاره أعيانها ليفاوض الحكومات في أمر الاستقلال.

مرض يعقوب ووفاته:

بعد هذا الحادث اشتد المرض على **يعقوب** وتوفي في السادس عشر من أغسطس سنة ١٨٠١ والسفينة على مقربة من سواحل الأناضول الجنوبية الغربية وقد راعى إدموندس مقامه وجاء أهلهل فلم يلق جثته في البحر بل وضعها في دن من (الروم) حفظها حتى مرسيليا حيث دفنت وفي إحدى مقابرها يرقد الآن **الجنرال يعقوب** في قبر معروف.

ولم يكن موته نهاية الأمر فقد قرر لاسكاريس أن الوفد باق رغم موت رئيسه وأعد مذكره مفصلة بالموضوعات التي تحدث فيها يعقوب مع إدموندس وسلمها في مرسيليا لذلك الإنجليزي لتبليغها لحكومته فتعهد إدموندس بذلك وبالمحافظة على سر هذا الأحاديث عن نفسه وعن حكومته.

الباب الأول

الفصل الأول

- الأقباط تحت حكم الفرنسيين
- بزوغ فجر القومية المصرية

الفصل الثاني

- حال القبط بحسب تدوين الجبرتي
- الفوضى تجتاح العاصمة المصرية
- عمر مكرم يتحالف مع الأتراك والمغاربة
- اقتلوا النصارى .. وجاهدوا فيهم
- قتال المسلمين والأقباط
- قطع رؤوس الأبرياء
- تركز القتال في القاهرة
- القبط يطلبون الأمان
- الحقوا إخوانكم المسلمين
- عمر مكرم يحرض على الجهاد

الأقباط تحت حكم الفرنسيين[16]

أثبتت الحملة الفرنسية، رغم قصر عمرها، أنها حدث بارز في تاريخ مصر الحديثة. فللمرة الأولى منذ عصر الصليبيين تدخل مصر في علاقة مع الدول الأوروبية. فقد جاء نابليون الآن لتأسيس إمبراطورية في الشرق الأوسط بحجة الدفاع عن الإسلام، لا الهجوم عليه، وبهذا الفعل، يكون قد عرض مصر لتأثير الفكر الغربي والسياسة الغربية. وقد تأثرت كل وجوه الحياة في مصر وبدرجات مختلفة من القوة بتلك الحركة، وأصبحت مصر أيضاً عاملاً يحسب له حساب في السياسة الدولية.

إن صعود محمد علي وتأسيس أسرته الحاكمة في مصر قد ينظر إليه على أنه نتاج غير مباشر للحملة. وفي تلك الأيام التي كانت تحفل بالتقلب والتغيير، لم يقف المجتمع القبطي موقفاً سلبياً. ففي سنة ١٧٩٨ م تقدم المعلم جرجس الجوهري بالتماس لنابليون - باعتباره ابن الثورة الفرنسية الحقيقي والممثل لمبادئ الحرية والمساواة- بالمساواة مع إخوتهم المسلمين. وكانت استجابة نابليون الأولية طيبة لكنه لم يضح أبداً بمصالح الأغلبية المسلمة من أجل مصالح الأقلية القبطية، وعلينا أن نتذكر هذا العدد الكبير من الجنود الفرنسيين وعلى رأسهم نابليون وهم يدّعون أنهم مسلمون.

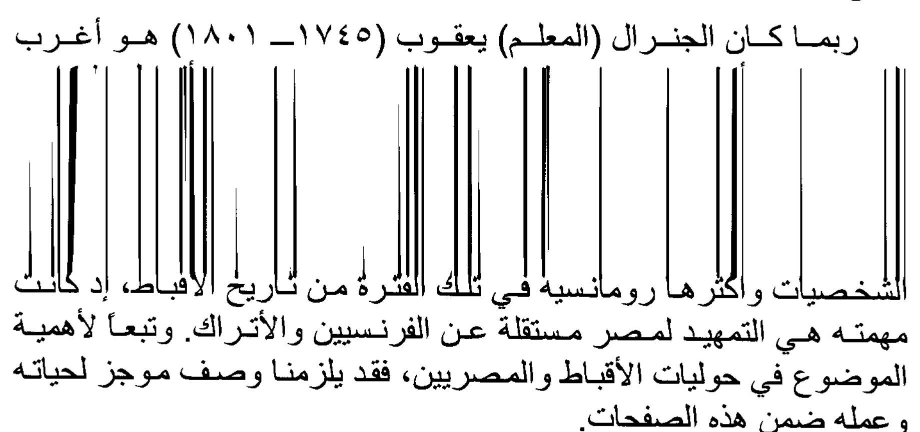
ومع ذلك، فقد توسع الفرنسيون في استخدام الأقباط في الإدارة، وارتفع بعضهم إلى المناصب العليا. فقد عين جرجس الجوهري مرة أخرى في منصب رئيس الإدارة لشئون الضرائب ، بعد هروب أمراء المماليك أمام الفرنسيين . وفي إحدى اللجان التي شكلت لإدارة شئون القضاء المحلي من أثنى عشر عضواً، كان ستة منهم من الأقباط وستة من المسلمين ، وكان رئيس اللجنة هو المعلم ملطي ، الذي تصادف أنه كان قبطياً. ومع أن الأقباط لم يكونوا موضع تفضيل عند شركائهم في الدين من الفرنسيين، فإن الحقيقة الباقية هي أنهم لم يتعرضوا للقهر أبداً.

---

[16] عزيز سوريال عطية- موسوعة "من تراث القبط"، المجلد الأول- الباب الرابع، الفصل الرابع، ص٢٢٥-٢٢٧.

بزوغ فجر القومية المصرية.

ربمـا كـان الجنـرال (المعلـم) يعقـوب (١٧٤٥ـ ١٨٠١) هـو أغـرب



الشخصيات وأكثرها رومانسية في تلك الفترة من تاريخ الأقباط، إذ كانت مهمته هي التمهيد لمصر مستقلة عن الفرنسيين والأتراك. وتبعاً لأهمية الموضوع في حوليات الأقباط والمصريين، فقد يلزمنا وصف موجز لحياته وعمله ضمن هذه الصفحات.

في أيام المماليك كان المعلم يعقوب حنا مسئولاً عن إقليم أسيوط تحت حكم الأمير سليمان بك، وأحس في فترة شبابه، أن عليه واجب تطوير نظام خاص به للشرطة في هذا الإقليم الذي لا يشعر الناس فيه بالأمن ولا الأمان.

وكان قد تعلم من المماليك فن الفروسية وطرق الحرب. وحارب جنباً إلى جنب مع سليمان بك، وانضم فيما بعد إلى مراد بك في معركة المنشية القريبة من أسيوط، حيث تمت هزيمة الأتراك عشية مجيء الفرنسيين. وفي سنوات القتال المرير بين الأتراك والمماليك، بدأ المعلم يعقوب يدرك الحقيقة الناصعة بأن الشعب المصري كان ضحية اغتصاب من جانب هذين العنصرين الأجنبيين، وأنه لم يجد لنفسه طريقاً للخلاص منهما. ثم جاء دخول الفرنسيين واندحار الأتراك والمماليك أمام أسلحتهم الحديثة فألهم يعقوب فكرة إمكانية الخروج من المأزق. ولأن الوضع في مصر لا يمكن أن يكون أسوأ مما كان عليه، فقد قرر أن يجرب خطة الفرنسيين. وكانت معرفته بطرق المواصلات ووسائل الاتصال في مصر وكذلك طرق إعداد الجيش بالمؤن قد جعلت خدمته للفرنسيين خدمة عظيمة لا تقدر بثمن. وعندما أرسل نابليون الجنرال ديزيه لاستكمال غزو صعيد مصر، عين يعقوب مساعداً له. حارب يعقوب بشجاعة وتمكن في إحدى المناسبات[١٧] من أن يصد المماليك ويوقف تقدمهم حتى جاء الجيش الفرنسي ليسانده من الخلف، وقد أهداه ديزيه سيفاً مزيناً بالنقوش تخليداً لذكرى هذا النصر على المماليك. وكان لتعاونه مع الفرنسيين أثرٌ مهم مكنهم من إخضاع الصعيد كله حتى أسوان واتخاذ أسيوط مركزاً رئيسياً. وبفضل تنظيمه المحكم لخدمة البريد ربط بين الحاميات ربطاً دقيقاً عن طريق الإبل السريعة التي أثبتت قدرتها العظيمة كوسيلة لنقل الرسائل والمؤن إلى جانب الجرحى من الجنود وتوصيلهم إلى مراكز العلاج.

---

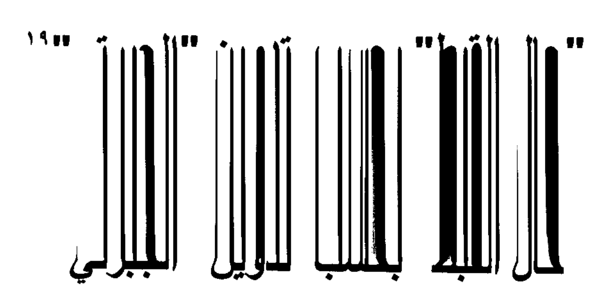
[17] موقعة عين القوصية.

وبينما كان يعقوب يتمركز في الصعيد ، كانت الأحداث قد أخذت تتحرك بسرعة ضد الفرنسيين في الشمال. لقد فقدوا أسطولهم في موقعة أبي قير، وأصبح القائد نلسون مسيطراً على البحر، وعاد نابليون إلى فرنسا تاركاً خلفه كليبر، وخزينته خاوية. حدث هذا كله في وقت كان فيه المسلمون قد أخذوا يرتابون في السياسة الفرنسية. وأصبح الفرنسيون في حاجة شديدة لرجال من صنف المعلم يعقوب. إذ بينما كان كليبر يحارب الأتراك في معركة هليوبوليس (مارس ١٨٠٠م)، كان يعقوب يجاهد لإخماد ثورة اشتعلت بتحريض من الأتراك داخل المدينة[١٨]. وفي تلك الظروف المعاكسة أستطاع يعقوب أن يقنع الفرنسيين بمساعدته في تحقيق حلمه القديم. لقد حرمت مصر منذ أمد طويل من أن يكون لها جيشها القومي، وكان يعقوب يعتقد أنه بدون وجود هذا الجيش القومي لن تستطيع الأمة رد اعتبارها أو إصلاح حالها. وبما أن الأتراك يلعبون على المشاعر الدينية للمسلمين لتمزيق وحدة الشعب المصري، فعليه أن يجرِّب مع إخوانه المسيحيين. وبعد معركة "هليوبوليس" وافقت السلطات الفرنسية على خطته في تكوين فيلق قبطي قوامه ألفان من المجندين، من الصعيد أساساً، وتم تدريبهم بمعرفة الضباط الفرنسيين، واختار كليبر يعقوب قائداً لهم برتبة كولونيل في مايو ١٨٠٠م، وفي مارس ١٨٠١م رقاه أخيراً إلى رتبة جنرال.

إن حقيقة المعلم يعقوب وأسرار مهمته إلى أوروبا كشفتها مذكرات الفارس لاسكاريس، الذي سافر على الفرقاطة الإنجليزية بالاس Pallas وكان يقوم بدور الترجمان بين يعقوب والكابتن إدموندز قبيل مرض يعقوب. فقد كان يعقوب يريد من الكابتن إدموندز، أن ينقل رسالة باسمه واسم الشعب المصري إلى الحكومة الإنجليزية تؤكد أن الحل الوحيد للمسألة المصرية هو استقلال مصر. وترجمت الرسالة إلى قائد البحرية Earl of -Vincent Saint الإيرل أوف سان فنسن، مغلفة بخطاب في ٤ أكتوبر ١٨٠١م من جزيرة مينورقة. وقدمت التماسات مماثلة من أعضاء الوفد المصري الآخرين إلى بونابرت باعتباره القنصل الأول وإلى تاليران، وزير خارجيته. وعلى هذا بزغ فجر القومية المصرية من بين أشلاء الجنرال يعقوب المبعثرة.

---

18 موقعة الأزبكية.



إن ما يسمى بثورة القاهرة ضد الفرنسيين ما هي إلا بدعة ابتدعتها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م. فلقد سجل الجبرتي المؤرخ المسلم مشاهدته لأحداث هذه الفترة- التي عمت فيها الفوضى- لما يدل على أن المفكرين والعلماء وشيوخ مصر وكبارها لم يكن لهم حول ولا قوة أمام القادة العثمانيين الذين احتلوا القاهرة.

وما أطلقت عليه ثورة يوليو- في كتب المناهج المدرسية التي تدرس في مصر حتى الآن- اسم "ثورة القاهرة الأولى" لا يعدوا كونه غير تعبيراً عن الاستياء من الضرائب التي فرضها نابليون، وبمجرد إطلاق الفرنسيين مدافعهم حتى هرب المسلمين واختبأوا في بيوتهم وهم يرددون عبارة: "نادوا يا سلام.. من هذه الآلام"، "يا خفي الألطاف.. نجنا مما نخاف"[20]

أما ما أطلق عليها اسم "ثورة القاهرة الثانية"، فإنها في الحقيقة فوضى ونهب وهياج للرعاع، وما يسمونه جهاداً، ما هو إلا لون من ألوان استثارة العامة للهياج. فيوضح "الجبرتي"- في تاريخه- الأسباب[21] التي سببت هذه الثورة وهي:

١- عقد العثمانيون (المسلمون) صلحاً مع كليبر القائد الفرنسي على أن ينسحب الجيش الفرنسي بشروط، ثم خدعهم العثمانيون واتفقوا مع الإنجليز على أنهم يمنعوا مغادرة الجيش الفرنسي مصر بعد تسليمه جميع بلاد مصر.

٢- شكوى الشيوخ إلى القادة العثمانيين من عساكرهم الذين يشاركون الناس في أرزاقهم.

٣- لم يكن في يد الفرنسيين إلا القاهرة بعد أن سلموا كل بلاد مصر وقراها للعثمانيين وجيشهم- طبقاً لشروط الصلح- ولما اكتشف

---

19 الجبرتي- المختار من تاريخ الجبرتي - اختيار محمد قنديل البقلي - كتاب الشعب - الجزء الثالث قال الجبرتي في يومياته ص ٣٥٢- ٣٥٥: "استمر المسلمون سواء الذين غزوا مصر أو الذين سكنوها يقتلون الأقباط بصورة مستمرة حتى اليوم وخاصة في أيام الحروب".

20 المرجع السابق

21 عزت أندراوس- تاريخ الأقباط- www.coptichistory.org

الفرنسيون خيانة العثمانيين لهم خرجوا من القاهرة بقواتهم قاصدين تحطيم الجيش العثماني المتواجد في الخانكة والصالحية وبلبيس، فدمروا القوات الرئيسية فيهم وهرب الوزير العثماني- وهو القائد العام- إلى الشام ولكن تسللت مجموعة من الجيش العثماني إلى القاهرة وتحصنت فيها.

٤- طلب الفرنسيون في شروط الصلح ثلاثة ألاف كيس من الأموال على سبيل "سلفة" من الباب العالي، فأرغم العثمانيون المصريين على دفع هذه المبالغ بدلاً من أن يدفعها الباب العالي لأنها سلفه، غير مبالغ أخرى لهم ومبالغ ثالثة للمماليك حتى أن الجبرتي المؤرخ المسلم علق على العثمانيين بعبارة قويه قال فيها: "ودهي الناس من أول أحكامهم بهاتين الداهيتين .. وكان أول قادم منهم أمير المكوسات ومحكر الأقوات، وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم".

٥- بدأ الفقهاء والشيوخ والعامة في إهانة الفرنسيين فكانوا يطوفون في الشوارع يقولون: "الله ينصر السلطان.. ويهلك فرط الرمان"، ونظروا إلى الفرنسيين بعين الاحتقار وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية، ولم يفكروا في عواقب الأمور، ولم يتركوا معهم للصلح مكاناً.

٦- لم تتحكم القيادة العثمانية في عساكرها كما لم تحفظ الأمن والأمان لجميع المواطنين من المسلمين الآمنين والأقباط.

٧- في يوم ٢٦ أبريل ١٨٠٠م سجل الجبرتي المؤرخ المسلم يومياته ووصف ما فعله العامة من المسلمين من شرور من فعل العصابات التي انتشرت في أحياء القاهرة ولم يوقفها العثمانيين فقال: "وقع فيها حروب وكروب وانزعاج وتشتت وهياج، وتهدم البيوت وخرابها، وقتل الرجال ونهب الأموال، وتسلط الأشرار وهتك أعراض الأحرار"، كما حصر الأحياء والبيوت التي صارت خرائب وتلال وقال في نهايتها عبارة يدين فيها ما فعله الغوغاء في هذه الحرب فقال: " ويتذكر بها ما يتلوا في حق الظالمين من الآيات : "فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، إن في ذلك لقوم يعقلون".

الفوضى تجتاح العاصمة المصرية:

"ولم يدرك أهل العاصمة المصرية ما يدور حولهم وكثر القيل والقال

وبدأت الشائعات تنتشر، فهاجوا وماجوا واندفعوا في أطراف القاهرة وقتلوا أشخاصاً من الفرنسيين الذين لم يعتدوا عليهم كانوا خارجين لينضموا إلى أقرانهم، وذهب بعض العامة من أهل العاصمة فنهبوا الخشب وبعض ما وجدوه من نحاس وغيره من عرضي الفرنسيين.

عمر مكرم يتحالف مع الأتراك والمغاربة:

"وخرج السيد عمر أفندي نقيب الأشراف، والسيد المحروقي، وأنضم إليهم أتراك خان الخليلي والمغاربة الذين بمصر وحسين أغا شنن أخو أيوب بك الصغير وتبعهم كثير من العامة من أهل العاصمة المصرية وتجمعوا على التلال خارج باب النصر وبأيدي الكثير منهم النبابيت والعصي والقليل معه سلاح، وكذلك **تحزب كثير من طوائف العامة والأوباش والحشرات وطافوا بالأزقة وأطراف العاصمة يصيحون ويصرخون يقولون كلاماً بقافية من اختراعاتهم.**

"اقتلوا النصارى .. وجاهدوا فيهم"

"وفي ساعة العصر وصل جمهور كبير من العامة خارج البلدة يصيحون ومعهم إبراهيم بك من المماليك، ثم مجموعة أخرى خلفهم يصحبهم سليم أغا من الأتراك العثمانيين، ثم أخرى خلفهم عثمان كتخدا الدولة، ثم نصوح باشا ومعه كثير من العساكر العثمانية ويصحبهم السيد عمر النقيب والسيد احمد المحروقى وحسن بك الجداوي وعثمان بك المرادي وعثمان بك ألشقر، وعثمان بك الشرقاوي، وعثمان أغا الخازندار، وإبراهيم كتخدا مراد بك المعروف بالسنارى وكان **بصحبتهم مماليكهم وأتباعهم فدخلوا من باب النصر، وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصلوا إلى وكالة ذى الفقار، فقال نصوح باشا عند ذلك للعامة: "اقتلوا النصارى، وجاهدوا فيهم" .. فعندما سمعوا ذلك صاحوا وهاجوا ورفعوا أصواتهم، وجروا بسرعة يقتلون من يصادفونه من النصارى القبط والشوام وغيرهم، وذهبت مجموعة منهم إلى حارات النصارى وبيوتهم التي بجهة بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكي فصاروا يهجمون على بيوت الأقباط ويقتلون من يقابلهم من الرجال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون**

الفتيات الصغيرات، وراجت أفعالهم وسمعوا بها المسلمين المجاورين لهم، فتحزبت الأقباط واحترسوا وجمع كل منهم ما قدر عليه من العسكر الفرنسيين والأروام محترسين وعندهم الأسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع الأمر.

قتال المسلمين والأقباط:

فوقعت الحرب بين الطرفين وقاتلت النصارى (الأقباط) وترمى المهاجمين المسلمين بالبنادق والقرابين من الأدوار العليا في بيوتهم على المسلمين بالأزقة من العامة والعساكر الذين معهم يحامون عن أنفسهم، والآخرون يرمون من أسفل ويهاجمون البيوت ويقفزون عليها.

وفي هذا اليوم وضع أهل العاصمة والعسكر المتاريس بأطراف القاهرة وبحي الأزبكية، وبدءوا في بناء بعض جهات السور المتهدمة، وبات المسلمون في هذه الليلة خلف المتاريس.

قطع رؤوس الأبرياء:

وفي الصباح أعد قادة العسكر العثماني والمصرية وعساكرهم ومعظم أهل مصر للحرب، وذهبوا إلى الأزبكية واختفي الكثيرين في البيوت المتهدمة والخالية هناك والبعض اختبأوا خلف المتاريس وأخذوا عدة مدافع زيادة على الثلاثة مدافع التي كانت معهم وقد وجدوها مدفونة في بيوت الأمراء، ولم يكن عندهم الكور الحديدية التي يضعونها في المدافع ويطلقونها، فأحضروا العطارين وأصحاب المحلات المثقالات الحديدية التي يزنون بها البضائع، وحديد وأحجار واستعملوها بدلاً من الجلل للمدافع، وضربوا بها بيت ساري العسكر بالأزبكية.

وكان كل من قبض على نصراني أو يهودي أو فرنساوي يأخذه ويذهب به إلى الجمالية حيث يوجد عثمان كتخدا ويأخذ عليه بقشيش، فيحبس بعض الأقباط ويقتل البعض ظلماً، وربما قتل العامة من قتلوه وأتوا برأسه لأجل البقشيش، كذلك كل من قطع رأساً من رؤوس الفرنسيين يذهب بها إما لنصوح باشا بالأزبكية، وإما لعثمان كتخداً بالجمالية ويأخذ في مقابل ذلك الدراهم.

ووصل إلى مصر رجل مغربي قيل أنه كان يحارب الفرنسيين في البحيرة، والتف حوله مجموعة من المغاربة ومجموعه من الحجازية ممن

كانوا قد قدموا بصحبة الجيلاني، وفعل هذا الرجل المغربي أموراً شنيعة، لأن غالبية ما قتلهم ونهبهم لا يجوز قتلهم، **فكان يتجسس على البيوت التي بها الفرنسيين المدنيين والنصارى فيهاجمهم ومعه مجموعة من العامة**



والعساكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون بيوتهم ويسحبون النساء، ويسلبون ما عليهم من الحلي والثياب، ومنهم من قطع رأس صبية صغيرة طمعاً فيما على رأسها وشعرها من الذهب، وتتبع الناس عورات بعضهم البعض، وما دعتهم إليه حظوظ أنفسهم وحقدهم وضغائنهم.

أما الفرنسيين فإنهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالعاصمة مصر وبيت الألفي وما والاه من البيوت الخاصة بهم، **والمدنيين ببيوت القبطة المجاورين لهم.**

تركز القتال في القاهرة:

وفي بولاق قام الحاج مصطفي البشتيلي وأمثاله وهيجوا العامة، وأول ما بدءوا ذهبوا إلى وطاق (معسكر) الفرنسيين الذي تركوه بساحل البحر وكان بعض منهم يحرسونها فقتلوهم ونهبوا ما فيه من خيام ومتاع وغيره ورجعوا إلى بولاق وفتحوا مخازن الغلال الخاصة بالفرنسيين وأخذوا منها ما أحبوا، وأحاطوا البلد بالمتاريس واستعدوا للحرب والجهاد، وعاندوا وتعصبوا، **واستطالوا على سكان بولاق من نصارى القبط والشوام، فنهبوهم وقتلوا منهم أشخاصاً.**

وطارد قائد الجيش الفرنسي الوزير العثماني والعساكر الذين تبقى معه حتى الصالحية ولما تأكد بهزيمة الوزير وضع بعض عساكر الفرنسيين للحفاظ على هذه المناطق وكذلك بالقرين وبلبيس، ورجع إلى مصر، وقد وصلته الأخبار بما حدث من دخول ناصف باشا والأمراء وهوجة أهل مصر فدخل إلى القاهرة ووصل إلى داره بالأزبكية، وحاصر الجيش الفرنسي مدينة القاهرة وبولاق من الخارج ومنعوا الداخل من الدخول ولا الخارج من الخروج .. وذلك بعد ٨ أيام من ابتداء الهوجة، وأحاطوا بهما إحاطة السوار بالمعصم وقطعوا الإمداد من الخارج، **وكانت مجموعة من الأبرياء محصورين داخل المدينة، مثل الأقباط والشوام وغيرهم، يهربون إليهم، ويتسلقون الأسوار والحوائط بنسائهم وأولادهم.**

القبط يطلبون الأمان:

أما أكابر القبط مثل جرجس الجوهري وفلتيوس ومالطي فإنهم طلبوا الأمان من المتكلمين من المسلمين لكونهم انحصروا في دورهم وهم في وسطهم وخافوا على نهب دورهم إذا خرجوا فارين، فأرسلوا إليهم الأمان، فحضروا وقابلوا الباشا والكتخدا والأمراء، وأعانوهم بالمال واللوازم.

أما الجنرال القبطي يعقوب يوحنا فإنه كرنك في داره بالدرب الواسع جهة الرويعي، واستعد استعداداً كبيراً بالسلاح والعسكر والمحاربين، وتحصن بقلعته التي شيدها بعد الواقعة الأولى، وكان معظم حرب حسن بك الجداوي معه.

"الحقوا إخوانكم المسلمين"

وكان الجيش الفرنسي يهجم على بعض المناطق ويحاربون من فيها ويحتلون مناطق فيها، فيجرى المناديين صائحين: **"عليكم بالجهة الفلانية الحقوا إخوانكم المسلمين"** فيجرى الناس إلى هذه الجهة ويحاربون الفرنسيين حتى يجلونهم عنها فينتقلون إلى غيرها.

عمر مكرم يحرض على الجهاد:

وكان الذي ينتقل بمن معه للدفاع عن الأحياء هو حسن بك الجداوى، فإنه عندما يبلغه زحف الفرنسيين على حي من الأحياء فيهب إليها..وقل أن وقع حرب في حي من الأحياء إلا وهو مدير رحاها ورئيس تحركاتها، وكان هذا الأغا والوالي والمشايخ والفقهاء والسيد أحمد المحروقى والسيد عمر النقيب يشجعون الناس على القتال ويحرضون على الجهاد.

الباب الثاني

الفصل الأول

- الأقباط يخشون فشل الحملة الفرنسية
- المهارات الحربية للقبط قبل التأسيس الرسمي للجيش القبطي
- المعلم يعقوب القبطي- "موقعة المنشية" ١٧٨٦م
- الحملة الفرنسية على الصعيد
- أسباب الحملة على الصعيد
- محاولة اتفاق نابليون مع مراد بك
- يعقوب الرجل الثاني في حملة ديزيه "شريك ديزيه"
- يعقوب أصلح من يطارد مراد بك
- كمين "عين القوصية El-Qousieh"

الفصل الثاني

- موقعة جرجا
- دولة جرجا.. فرشوط العاصمة
- دخول "جرجا" للمرة الأولى
- مراد بك يعد العدة والعتاد
- تحرك السفن من أسيوط إلى جرجا
- الجيش القبطي في جرجا
- الجيش القبطي يؤمِّن حركة المراسلات
- المعارك العسكرية للجيش القبطي

المهارات الحربية للقبط قبل التأسيس الرسمي للجيش القبطي

يعتبر الكثير من المؤرخين أن تاريخ تأسيس الجيش القبطي- حسب ما ذكره الجبرتي- ضمن حوادث عام ١٢١٥هـ (مايو- يونيو ١٨٠٠م) غير أننا نجد عبر صفحات التاريخ بطولات لأفراد (قادة) هذا الجيش، سبقت التاريخ الفعلي لتأسيسه كما سنرى.

مقدمة:

عاش الأقباط في صعيد مصر قبيل مجيء الحملة الفرنسية[٢٢]، يمارسون شتى الأنشطة من زراعة وتجارة وحرف مختلفة[٢٣]، كما تخصص الأقباط في الشئون المالية والحسابية، فعملوا في خدمة الملتزمين بالقرى، كما عهد إليهم البكوات المماليك، والكُشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها وتوزيعها على الأطيان والحاصلات، فكانت لهم في هذه الناحية من إدارة الحكومة سلطة لا ينازعهم فيها منازع[٢٤].

"وظل الأقباط يعيشون داخل المجتمع المصري إلى جانب المسلمين يمرون بنفس الأحداث والمؤثرات التي يمر بها باقي سكان مصر سواء الأحداث السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية حتى قدوم الحملة الفرنسية، فما هو موقف الأقباط في صعيد مصر من الحملة الفرنسية؟

كان من المنطقي أن يتعاطف الأقباط من "أصحاب المصالح" مع الغزاة الجدد وأن ينظروا إليهم باعتبارهم "مخلّصين" سوف يحررونهم من ربقة الخضوع لسلطان المسلمين ويرفعون عنهم إصرهم والأغلال التي كانت

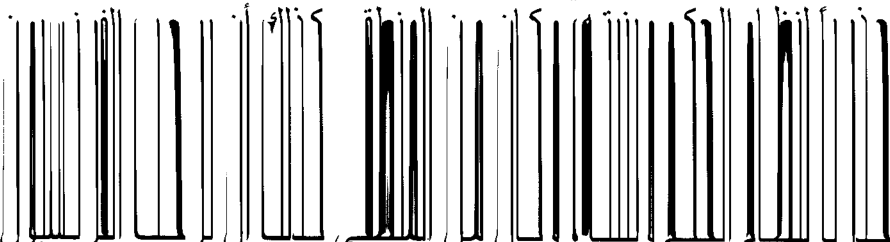
---

[22] تجدر الإشارة إلى أن الغالبية العظمى من أقباط مصر كانوا يقطنون في صعيد مصر، وفي بعض أنحاء الصعيد قرى يسكنها الأقباط وحدهم، ويرجع البعض التركيز السكاني النسبي للأقباط في الصعيد إلى أن الصعيد كان أكثر أمناً من الوجه البحري، لمزيد من التفاصيل أنظر: إدوارد وليم لين: "المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم (في القرن التاسع عشر)" ترجمة عدلي طاهر نور، الطبعة الأولى مطبعة الرسالة ١٩٥٠، ص٣٩٨، محمد عفيفي: "الأقباط في مصر في العصر العثماني"، سلسلة تاريخ المصريين، العدد رقم ٥٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢، ص١٩٨، ١٩٩.

[23] محمد عفيفي- المرجع السابق ١٥١- ١٨٩.

[24] محمد عفيفي- المرجع السابق ١٠٥- ١٤٨

تقيدهم من غريب الأوامر والعادات[25] فاندفعوا يرحبون به، ويعرضون عليهم خدماتهم، فهم قبل كل شيء مسيحيون مثلهم وغزوهم البلاد يمثل تغييراً



بتعاطف الأقباط معهم، وبخاصة بعد أن لمسوا عدم ترحيب سائر المصريين بهم أو تصديقهم لما أذاعوه من ادعاءات، فأخذوا منذ أن استقر الأمر لهم في القاهرة يستعينون بالأقباط لتيسير مهمة قواتهم الزاحفة لإتمام احتلال البلاد، ولمساعدة الجهاز الإداري على تدبير شئون الحملة وتحقيق الاستقرار لنظام الحكم والمحكومين على السواء"[26].

الأقباط يخشون فشل الحملة الفرنسية:

وتذكر المصادر المعاصرة أن أهل مدينة قوص Kous بصعيد مصر وغالبية سكانها من الأقباط، وبالتالي مسيحيون، كانوا يهتمون بأخبار الفرنسيين ويتعاطفون معهم ويتمنون لجيشهم النجاح ويخبرونهم بأخبار القوات المصرية التي سيلتقون بها، وتذكر هذه المصادر أن "مصدر هذه المشاعر لم تكن بسبب وحدة الدين فقط، ولكن بسبب ما أحاطهم به "ديزيه" من عناية وكرم حتى أطلقوا عليه لقب "العادل Le surnom de Juste"، وكان هؤلاء الأقباط يخافون على الفرنسيين من أي خطر يتهددهم"[27].

كما تشير وثائق الحملة الفرنسية إلى خوف الأقباط إذا ما فلت زمام الأمور من الفرنسيين، ففي رسالة من "فاليت" قائد جرجا إلى "بليار" يقول له: "الريف عندي هادئ ولكن أهل أخميم قلقين، إن جميعهم مسيحيون وهم يخشون أن يقتلوا إذا ما فلت منا زمام الأمور"[28].

---

[25] كان الأقباط يخضعون من حين لآخر لبعض القيود التي كان جهاز الحكم يفرضها عليهم من حين لآخر ومن بين القيود التي كانت مفروضة عليهم ، القيود على الملابس بحيث كانت ملابسهم تتميز بألوان خاصة حتى يتميزوا عن المسلمين، كذلك حرم عليهم ركوب الخيل، وكذا حمل السلاح والتقلد بالسيوف وتعلية منازلهم أكثر من منازل المسلمين وما إلى ذلك من قيود، لمزيد من التفاصيل انظر: ليلى عبد اللطيف أحمد: "المجتمع المصري في العصر العثماني"، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٨٧، ص٦٣.

[26] أحمد حسين الصاوي: "المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٦م، ص١٣، ١٤.

[27] نبيل السيد الطوخي-: "صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية (١٧٩٨- ١٨٠١)، ص٣٣٢.

[28] نبيل السيد الطوخي- المرجع السابق، عن ملف رقم ١٢بدوسيه رقم ٢، Carton 37، بمحفظة فترتها التاريخية من١٦نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر ١٧٩٩م.

وفي رسالة من "زايونشك" قائد بني سويف إلى الجنرال دوجا يقول له "الحالة تبدو هادئة ولكن أهل القرى يكتسبون يوماً فيوماً بعض الشجاعة، أما الأقباط فيبدو عليهم الخوف"[٢٩].

ولكن لماذا يخاف الأقباط، ولماذا يخشون أن يفلت زمام الأمور من الفرنسيين؟ هكذا يتساءل نبيل السيد الطوخي في كتابه فيقول: "لا شك أن خوف الأقباط يدل على تعاونهم مع الفرنسيين وتعاطفهم معهم، وأن هذا الشعور من الأقباط بالتعاطف تجاه الفرنسيين قد ظهر للمسلمين من أبناء الصعيد، فخشوا إذا ما فلت زمام الأمور من يد الفرنسيين أن ينتقم المسلمون منهم".

ولهذا بادر ديوان القاهرة بإرسال فرمان إلى حضرات القضاة والحكام: "حاكم الشرع الشريف بولاية إسنا وإقطاعها وكل العلماء والسادات والأشراف والأعيان والمتكلمين، وجميع من يخاطب من مشايخ البلاد والعربان" يوصهم بأهل الذمة "الطائفة النصرانية والرعايا القبطية تعاملونهم معاملة الأمن والأمان القاطنين بالنواحي والبلدان حيث أنهم يدفعون الجزية الشرعية، لهم ما لنا وعليهم ما علينا"[٣٠].

المهارات الحربية للأقباط قبل التأسيس الرسمي للجيش القبطي:

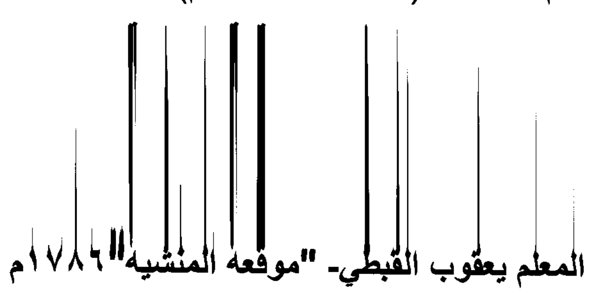
من الواضح أن بعض (أهم) أفراد (قادة) الجيش القبطي كان لهم خبرة حربية سابقة على التأسيس الرسمي للجيش، بل وشارك بعضهم في معارك ومواقع حربية أثبت فيها جدارة أهلته لأن يصبح من قادة الجيش القبطي الوطني، وكانت أهم هذه المعارك- في أثناء حملة ديزيه على الصعيد- كمين عين القوصية، ومعركة جرجا، وموقعة أسوان، وغيرها. كما كان أهم هؤلاء القادة على الإطلاق "المعلم يعقوب"، وإليوس بقطر- ابن أسيوط- تلميذ يعقوب وكاتبه وأحد جنوده الذي عينه نابليون مترجماً للحملة، وابن أخي يعقوب غبريال سيداروس (كولونيل)، الذي اشترك مع عمه في موقعة جرجا ومعركة أسوان التي عُين بعدها وكيلاً للفيلق القبطي (مما يثبت أن الفيلق

---

[29] نبيل السيد الطوخي- المرجع السابق، عن ملف رقم ٦بدوسيه رقم ٢، بمحفظة فترتها التاريخية من١إلى ٣١ يناير ١٨٠٠م.

[30] نبيل السيد الطوخي- المرجع السابق، عن سجلات المحاكم الشرعية: سجلات محكمة إسنا، سجل رقم ٥١، فترته التاريخية من ٢٠ ربيع أول إلى ٣ شوال سنة ١٢١٤هـ، وثيقة رقم ٦٧٦ مؤرخة في ٢٥ شهر ذي القعدة سنة ١٢١٤هـ (٢٠ أبريل سنة ١٨٠٠)، ص ٢٨٤.

القبطي كان قد بُدئ في تأسيسه قبل التاريخ الذي ذكره الجبرتي ضمن أحداث عام ١٢١٥هـ (مايو- يونيو ١٨٠٠م).



المعلم يعقوب القبطي- "موقعه المنشيه" ١٧٨٦م

ولد المعلم يعقوب القبطي[٣١] في سنة ١٧٤٥م، في ملوي، ودخل خدمة سليمان باشا كبير الانكشارية، فجمع ثروة عظيمة. وقد حارب إلى جانب مولاه. وكثيراً ما دخل في المنازعات والحروب بين حزب مراد بك وجيش قبطان باشا سنة ١٧٨٦م، وكانت أهم الواقعات التي أبلى فيها يعقوب بلاءً حسناً "موقعة المنشية" التي فيها انخرط في الصراع واضطر- بعد أن بلغ سن الأربعين- إلى مقاتلة من هاجموه من الأتراك في موقعة "المنشية" في سنة ١٧٨٦م، حيث انهزم رجال حسن باشا الجزايرلي قبطان البحر التركي الذين حملوا على "إبراهيم بك" و "مراد بك" وتعقبوهما حتى الصعيد الأوسط.

ومنذ تلك المعركة- التي سبقت الحملة الفرنسية بنحو اثنتي عشر سنة- التي أبلى فيها يعقوب على صهوة جواده بلاء الفرسان الذين يحسنون الكر والفر، تغلغل في وعيه معنى الاستقلال ووجوب الدفاع عن النفس والأرض بالسلاح[٣٢].

"ولهذه الصفات الحربية والإدارية دخل يعقوب في خدمة الفرنسيين بعد نزول بونابرت إلى مصر"[٣٣].

---

[31] جورج يانج- المستر، تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، تعريب علي أحمد شكري، صفحات من تاريخ مصر (٥)- مكتبة مدبولي- الطبعة الثانية ١٩٩٦م – حاشية بصفحة ٥٦، ٥٧

[32] أنور لوقا(الدكتور)- "موسوعة من تاريخ القبط"- المجلد الأول- الملحق الأول، ص ٢٤٦.

[33] جورج يانج- المرجع السابق، بنفس الحاشية.

الحملة الفرنسية على الصعيد
(٢٥ أغسطس ١٧٩٨م- فبراير ١٨٠٠م)

مقدمة:

"بعد انتصار الفرنسيين على المماليك والأهالي في موقعة إمبابة (أو "الأهرام" -٢١يوليه ١٧٩٨م) حيث كانت خسائر المصريين في الأرواح فادحة (قدرت بنحو خمسة آلاف نسمة)، بينما بلغت خسائر المماليك ألفي قتيل، في حين بلغت خسائر الفرنسيين ثلاثمائة قتيل فقط[٣٤]، دخل نابليون وجنوده القاهرة في ٢٤يوليو سنة ١٧٩٨م، أما فلول المماليك فقد انسحبت إلى الصعيد، وتبعها مراد بك فأرسل بونابارت القائد "ديزيه" على رأس قوة إلى الصعيد لمطاردة مراد بك وأتباعه.

أسباب الحملة على الصعيد:

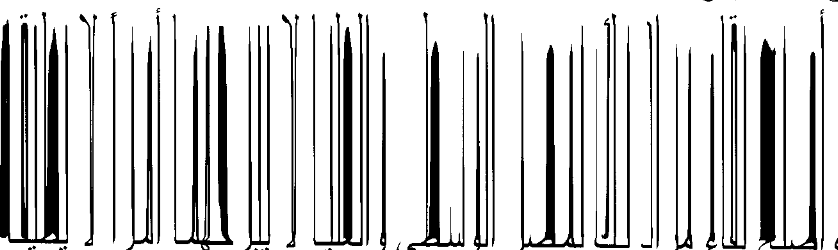
وكان عدد الذين تبقوا من جنود مراد بك يبلغ ثلاثة آلاف جندي، فشكل ذلك خطراً على نابليون، لأنه لن يحس بالأمان في الدلتا مادام المماليك مسيطرين على نهر النيل جنوبي القاهرة إذ كان معنى ذلك أن في استطاعتهم- في أي لحظة- أن يكروا عليه بهجوم مفاجئ من مصر العليا، والواقع أنه كان معروفاً أن مراد بك راح يجمع بالفعل جيشاً جديداً في صعيد مصر".

"ولقد سبق لمراد بك – في زمن مضى- أن أقصي على يد الأتراك إلى الصعيد بالقوة، إلا أنه عاد بعد ذلك بالقوة أيضاً منتصراً إلى القاهرة، وكان في استطاعة مراد بك أن يعتمد- إلى حد ما- على مساعدات البدو والقبائل التي تعيش في الصعيد على امتداد ضفتي النيل، إلى جانب أتباعه من المماليك، وبالتالي كان من الممكن أن تتكون لديه قوة كبيرة للقيام بغارات مسلحة على أقاليم الدلتا، وربما أيضاً لضرب الحصار على القاهرة نفسها، حيث كان مراد بك على اتصال بالمراسلات مع الساخطين في مدينتي القاهرة والإسكندرية، ومع زميله إبراهيم بك في غزة، وبالجزار باشا في عكا،

---

[34] عبد العزيز الشناوي- عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، سلسلة أعلام العرب، عدد رقم ٦٧، القاهرة، دار الكتاب العربي ١٩٦٧ ص٤١

وبالأسطول الإنجليزي المرابط أمام الإسكندرية، وكانت مراسلاته مع هؤلاء تتم بواسطة البدو"[٣٥].



الفرنسيون حتى ولو لم ينشأ عنه تهديد مباشر لتملكهم القاهرة والدلتا، فما دام مراد حراً طليقاً فسينتظر سكان الأقاليم المحتلة عودته آخر الأمر، سواء أرادوا أو لم يريدوا، وسوف تتأثر نفوسهم بدعاية مراد بك وتستجيب لها إما بالخوف منه، وإما بالتحمس له، أضف إلى ذلك أنه كان من الضروري طرد مراد بك من مصر الوسطى والعليا قبل أن يجد من الوقت متسعاً لجمع الضرائب هناك، لئلا يفلت هذا المورد من الخزانة الفرنسية وهي في أمس الحاجة إليه"[٣٦].

"ولاشك في أن كل هذه الأسباب قد جعلت نابليون يفكر بنظره الثاقب وهو غارق في مجالات نشاطه المتباينة الألوان في إرسال حملة لإخضاع الصعيد لسلطته والقضاء على قوة مراد بك، لأن وجود قوة معادية في الصعيد يهدد سلطة الحكومة المركزية، يكون مثابة للمقاومة الأهلية، ويعطل الملاحة في النيل، ويحبس الغلال على الوجه البحري، فيستهدف سكان القاهرة والدلتا وجنود الحملة للمجاعة"[٣٧].

"وبالفعل فلقد تعطلت الملاحة في النيل في الشهور الأولى من احتلال القاهرة وحبس مراد بك في الوجه القبلي السفن المحملة غلالاً إلى القاهرة حتى لا تقع في أيدي الفرنسيين، فخشي نابليون من استفحال هذه الأمور، فتكون مصدر تهديد له تزيد من متاعبه فعزم على إرسال حملة لاحتلال الصعيد"[٣٨].

محاولة اتفاق نابليون مع مراد بك:

"قبل أن يهم نابليون بإرسال حملة لإخضاع الصعيد، فكر في أن يدخر قواته ويمنع الحرب وذلك نظراً للموقف الحرج للحملة في الوجه البحري والقاهرة بسبب المقاومة الشعبية، هذا إلى جانب ما ستتعرض له حملته في صعيد مصر من صعاب تتمثل في كون بلاد الوجه القبلي مستطيلة عن

---

[35] كرستوفر هيرولد- "بونابارت في مصر": ترجمة فؤاد أندراوس: مراجعة محمد أحمد أنيس: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦. ص٢٤٤.

[36] كرستوفر هيرولد- المرجع السابق، ص٢٤٥.

[37] عبد الرحمن الرافعي- المرجع السابق، جـ١، ص٣٣٧.

[38] نبيل السيد الطوخي- المرجع السابق، ص١٢٠.

بعضها البعض، وتحف بها الصحارى الواسعة فضلاً عن وعورة الطرق وصعوبة المواصلات.

"لذلك فكر نابليون في أن يتبع أسلوب المفاوضة السلمية مع مراد بك على أن يترك له إقليم جرجا وما يليها إلى الشلال، شريطة أن يكون تابعاً للحكومة الفرنسية فيؤدي الخراج الذي كان يخرج من هذه الجهات، وكان المسيو "كارلو روسيتي Rosetti" قنصل النمسا في مصر رسول المفاوضة بينهما، فبعث إليه نابليون بتعليماته في رسالة مؤرخة (أول أغسطس ١٧٩٨م)، فكان جواب مراد بك "إن هذا الكلام لا نقدر أن نسمعه ولكن قول إلى الجنرال بونابرته يأخذ عساكره ويرجع إلى اسكندرية ونحن ندفع له عشرة آلاف كيس ويتوجه إلى بلاده" فإن فعل حقن دماء جنوده ووفر عليّ مشقة محاربته"[39].

الحملة على الصعيد:

ما أن تلقى نابليون رد مراد بك، حتى أصدر أوامره للجنرال ديزيه لقيادة حملته ليتعقب قوات مراد بك بالصعيد والقضاء عليها، وإخضاع الوجه القبلي من جهة أخرى، "فشرع الجنرال ديزيه في مغادرة الجيزة وركب سفينة في ٨ فريكتودور من العام السادس من التقويم الجمهوري الموافق ٢٥ أغسطس ١٧٩٨م وتحرك مع أول ضوء من اليوم المذكور مع بعض السفن المسلحة لحراسة الحملة"[40]

ويبدو أن اوامر نابليون بالحملة على الصعيد- على الرغم من سرعة قراره- لم تأت اعتباطاً، فقد اراد نبليون- كما ذكرنا آنفاً- أن يدخر قواته ويمنع الحرب، لاسيما وهو يعلم- بتحرياته- ما ستتعرض له حملته في صعيد مصر من صعاب تتمثل في كون بلاد الوجه القبلي مستطيلة عن بعضها البعض، وتحف بها الصحارى الواسعة فضلاً عن وعورة الطرق وصعوبة المواصلات. لكن كما تذكر بعض المصادر أن قرار الحملة قد شارك فيه أقباط الجيش القبطي (يعقوب وزملاؤه).

ففي مذكراته يذكر "نقولا الترك" أن خطة إخضاع الصعيد وضعها المعلم يعقوب:

---

[39] كرستوفر هيرالد- المرجع السابق، ص١٥٧.

[40] نبيل السيد الطوخي- المرجع السابق، ص١٢٤.

"وقام المعلم يعقوب بوضع خطة لحملة فرنسية تسير حتى بلاد النوبة لإخضاع المماليك الهاربين من الجيش الفرنسي في الصعيد ونفذ الفرنسيين



قيادة المماليك إبراهيم بك ومراد بك، وعندما تقلد محمد على الحكم قضى على بقيتهم حيث أنهم كانوا من الضعف لم يستطيعوا مقاومته، أما الجنرال ديزيه الفرنسي فعاد إلى أسيوط واتخذها مركزاً عاماً للقيادة ومعه المعلم يعقوب وكبار ضباطه"[41]

يعقوب الرجل الثاني في حملة ديزيه "شريك ديزيه"

يذكر Herold "هيرولد" في مؤلفه[42] الشهير " BONAPART IN EGYPT" عن المعلم يعقوب: "وكان يركب إلى جوار ديزيه رجلٌ فذ، لولا لباقته وكفايته وشجاعته، لما استطاع ديزيه - في أغلب الظن - أن ينال ما نال من أمجاد النصر رغم عبقريته كلها. وذلك هو المعلم يعقوب القبطي، الذي كان من الناحية الرسمية منوطاً بجمع الضرائب في مصر العليا، ولكنه كان في الواقع شريكاً لديزيه في حملته"

يعقوب أصلح من يطارد مراد بك:

"كان المعلم يعقوب، بن يوحنا ومارية غزال، الذي إذ ذاك في مستهل عقده الخامس، أصلح مستشار لحملة توجه ضد مراد، الذي كان يعقوب يعرفه جيداً، لأنه اشتغل من قبل ناظراً لدائرة زميل لمراد يدعى سليمان بك، كان خبيراً بطبيعة البلاد وأهلها، وله في كل مكان صلات، وفيه دهاء وحسن سياسة لا تجد لهما نظير حتى في الجباة الأقباط.

وكان يتسم بصفة نادرة بين قومه، هي الشجاعة والكفاية الحربيتان. وكان أهل الصعيد يسمون فرقة ديزيه "جيش المعلم يعقوب"، ولو وقع هذا لقائد غير ديزيه لبرم به، ولكن ديزيه- المغرم بالتخفي- رأى ما في هذا الخطأ من فوائد، ولم يفعل شيئاً ليثني الناس عنه".

---

41 نقولا ترك - ذكر جمهورية الفرنسيين للديار المصرية .

42 ج كريستوفر هيرولد، المرجع السابق ، ص٣٢٩

".. والواقع أنه ما من قرار اتخذه ديزيه خلال حملته كلها، دون أن يستشر "القبطي" وهو لقب يعقوب في الجيش. ولما غادر بونابارت مصر، وأنشئ "فيلقٌ قبطيٌ" في الجيش الفرنسي، أصبح المعلم يعقوب قائده"[٤٣].

ويؤكد "نقولا ترك" أن الحملة قد حوت أكثر من المعلم يعقوب فيقول:
"وضمت الحملة بين صفوفها عدداً من المترجمين والأدلاء، كما اصطحب معه المعلم يعقوب القبطي"[٤٤].

فالـ"مترجمين": لاشك أنهم من أمثال "إليوس بقطر-صاحب القاموس الشهير- الذي عينه نابليون- قائد الحملة- بنفسه مترجماً لجيشه، وهو أحد جنود يعقوب الذين واصلوا الرحلة إلى فرنسا- بعد وفاة يعقوب"[٤٥].

و"الأدلاء": جمع "دليل" هو "المرشد" وهم من أمثال غبريال سيداروس- وكيل الفيلق القبطي فيما بعد- "الذي عمل أولاً دليلاً للحملة الفرنسية ومترجماً للجنرال كليبر في نفس الوقت، ثم أصبح وكيلاً في فرقة الجنرال ديزيه للحملة الفرنسية في الصعيد"[٤٦].

ويؤكد هذا المعنى المؤرخ الجبرتي فيقول:
" سافر عدد من الإفرنج إلى جهة الصعيد وعليهم صاري عسكر المتولي على الصعيد اسمه دزه (ديزيه) وبصحبتهم يعقوب القبطي ليدبر لهم الأمور، ويعمل لهم أنواع المكر والخداع ويطلعهم على الخبايا ويصنع لهم الحيل"[٤٧]

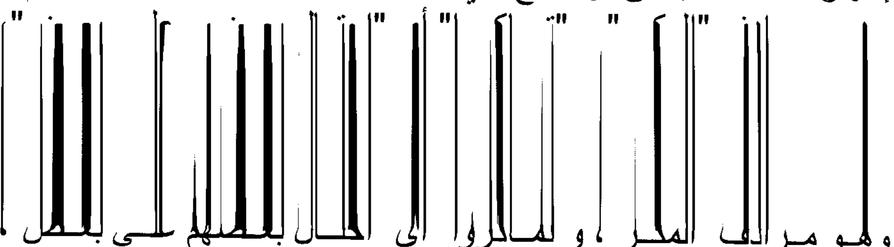
وهذا النص من جانب مؤرخ مهم كالجبرتي يجعلنا نقف أمامه حيث يخفي بين سطوره نشاطاً غير عادي لرجالات الجيش القبطي

فيقول **"يدبر لهم الأمور"**، و"التدبير"- بحسب المعاجم العربية[٤٨]- هو التفكر في الأمور والنظر في عاقبتها، و"دبّر الأمر" أي اعتنى به ونظمه، والمقصود به في هذا المقام هو "التدبير المالي"، أو "التموين المادي" للحملة، لاسيما وأن يعقوب قد صار- فيما بعد- مسئولاً عن التدبير المالي لمصر في عهد الحملة الفرنسية على مصر.

---

43 المرجع السابق.
44 نقولا ترك- "مذكرات نقولا ترك"، المعد الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٥٠، ص ١٨
45 أنور لوقا (الدكتور)- المرجع السابق، الملحق الثالث، ص٢٨٣.
46 أنور لوقا- المرجع السابق.
47 عبد الرحمن الجبرتي: "مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، لجنة البيان العربي، الطبعة الأولى، ١٩٦٩، ص٥٣.
48 المنجد في اللغة والأعلام: دار المشرق- بيروت.

"يعمل لهم أنواع المكر والخداع": و"الخداع"- أيضاً كما في المعاجم- إظهار خلاف ما يُخفى، و"خَدَعَ" أي "الحق بـه المكروه من حيث لا يعلم"،



والمقصود به في عالم الحروب، هو عمل الكمائن، وإحاكة المصائد، والخطط والحيل الحربيـة، واختـصار الـدروب والـشعاب، وكـل مـا يخـتص بالتمويـه، كالتمويـه بـبعض الجنـود والمباغتـة بـالبعض مـن موضـع آخـر....الـخ (خطـة فرنسية شهيرة).

"يطلعهم على الخبايا": و"الخبايـا" جمـع "خبيئـة"، وهـي مـا خُبِّـئ، وقد يكون المقصود بها إما خبايا الطرق والشعاب- كما سبق ذكره- أو المقصود- وهو الأرجح- "المخـابئ"، أي مواضـع الاختفـاء التـي قد يلجأ إليها المماليك وجنـودهم، وهـي تـشمل الأوكـار والمغـائر فـي الجبـال والـتلال، أو الـسراديب التي تساعد على الهروب المستتر.

"يصنع لهم الحيل": أما "الحيل" ومفردها "الحيلـة"، وهـي "القـدرة علـى التصرف فـي الأشـغال، والحـذق وجـودة النظـر"، والمقصود بــ"صـنع الحيـل" أي "وضـع الخطـط" التي توافق الحال.

ومن هذا النص يتبين لنـا أن بعض "ضـباط الجيش القبطـي"، أو "رجـال المعلـم يعقـوب القبطـي"، سبق وأن اشـتركوا فـي معـارك، وشـاركوا-لاسـيما المعلم يعقوب نفسه- الجيش الفرنسي في وضع الخطـط الحربيـة التـي لا يمكـن وضعها بحنكـة إلا لدارسـي الطـرق والجبـال الـوعرة، ومـن لـديهم القـدرة علـى التـأثير علـى الأهـالي الـذين- لـيس لهـم جمـل ولا ناقـة- بـل هـم دائمـاً ضـحية للحروب بين المستعمر التركـي أو المملـوكي مـن جهـة والغـازي الفرنـسي مـن جهة أخرى.

ويؤكد نبيل الطوخي في بحثـه القيم أن المعلم يعقوب كـان موجهـاً للحملـة معللاً ذلك بقولـه: "وبالفعل كـان المعلـم يعقـوب أصـلح مستـشار لتوجيـه حملـة ديزيـه ضـد مـراد بك، وذلك لمعرفتـه التامـة بالـصعيد لكونـه صـعيدي الأصـل ولخبرتـه المالية والإدارية"[٤٩].

"وكـان يعقـوب يـدل الفرنـسيين علـى المواقـع الهامـة فـي حملـة الـصعيد، وكـان لجهـوده هـذه- كمـا يقـول مـن أرخـو لـه- أكبـر الأثـر فـي نجـاح حملـة

---

[49] نبيل السيد الطوخي- المرجع السابق، ص١٢٥.

ديزيه"[50]، ويذكر الجنرال "بليار" في مذكراته أن "المعلم يعقوب القبطي يلعب الآن دوراً هاماً في البلاد، فالأهالي يعتبرونه كسلطانٍ Sultan، كما كان يُطلق على فرقة الجيش الفرنسي بالصعيد "جيش المعلم يعقوب" "L'armée de moallem Jacob".

كمين "عين القوصية El-Qousieh"(٢٤ديسمبر ١٧٩٨م):

"وتجدر الإشارة إلى أن المعلم يعقوب كان من أبرز الشخصيات التي تعاونت مع الفرنسيين بإخلاص شديد ووفاء لا مثيل له، فلقد كان الساعد الأيمن للجنرال ديزيه في حملة الصعيد ضد مراد بك وعرب الحجاز وأبناء الصعيد ورفض أن تكون مهمته مقصورة على تدبير المال والإشراف على شئون تموين الجيش الفرنسي بل اشترك اشتراكاً فعلياً في الحرب إلى جانب الفرنسيين"[51].

"وتجلت بطولته في النزال يوم وقع بمفرده في كمين نصبه المماليك ناحية "عين القوصية" ولو تقهقر أمامهم لهلك، فقارعهم، وظل على فرسه يناوشهم بالكر والفر إلى حين وصول طليعة ديزيه في (٢٤ديسمبر ١٧٩٨م)"[52].

ولما انتصر يعقوب في واقعة "القوصية "، وأبدى من ضروب البسالة ما جعل الجنرال يقلده سيف الشرف- (قيل أنه كان سيفاً فخرياً نقشت على اليد هذه العبارة: "معركة عين القوصية")- الذي كتب على نصله اسم الواقعة، "تكريماً بفضل شجاعة يعقوب **وفيلقه القبطي**" ولا يزال هذا السيف موجوداً عند الباقين اليوم من أفراد عائلته"[53]

"ولما استيقن المماليك- مخدوموه فيما سبق- من تفوقه عليهم، كتبوا إليه من طرف سليمان بك يلتمسون وساطته كي يكف الفرنسيون عن القتال نظير مقاطعة يتنازل عنها مراد بك للجنرال ديزيه".

"فرد عليهم يعقوب ناصحاً أن يتقدموا هم بطلب الأمان. وأثبت التاريخ صوابه في تقدير موازنة القوى. فإن مراد بك هو الذي اضطر إلى أن يوقع

---

[50] نبيل السيد الطوخي- المرجع السابق، ص٢٠.
[51] نبيل السيد الطوخي: المرجع السابق، ص٣٣٤.
[52] أنور لوقا: المرجع السابق، الملحق الأول، ص٢٤٦.
[53] تاريخ الأمة القبطية - الحلقة الثالثة - الجنرال يعقوب واستقلال مصر.

في ٥ أبريل سنة ١٨٠٠م معاهدة صلح مع الجنرال كليبر، نصت على تنصيب مراد صنجقا لجرجا "بشرط أن يدفع للجمهورية الفرنسية "الميري" أي مال الخراج الواجب للسلطان."[54]

---

[54] أنور لوقا: المرجع السابق.

العمليات العسكرية في صعيد مصر

موقعة جرجا[55] ("معركة جرجا"-٣١أغسطس إلى ١٤ سبتمبر ١٧٩٩م):

مقدمة

"اتسم موقف الأقباط بالتعاطف تجاه الفرنسيين، وكان ذلك بسبب ما أحاطهم به الجنرال ديزيه من عناية وكرم حتى أطلقوا عليه لقب "العادل-Juste"

وكان المعلم يعقوب هو أبرز الشخصيات القبطية التي تعاونت مع الفرنسيين بإخلاص شديد ووفاء لا مثيل له، حيث كان الساعد الأيمن للجنرال ديزيه في حملة الصعيد ضد مراد بك وعرب الحجاز وأبناء الصعيد، وكافأه الجنرال "منو" بترقيته إلى رتبة "جنرال-General"، نظير خدمته للفرنسيين أثناء حملة الصعيد، وأثناء حصار القاهرة وقت اشتعال ثورتها الثانية (٢٠مارس- ٢١أبريل سنة ١٨٠٠).

واستعان الفرنسيون بعدد وافر من أقباط الصعيد ليسدوا بهم النقص في صفوفهم، وأنشأ الفرنسيون "الفرقة القبطية"، وقاموا بتدريبها وتسليحها لتكون أداة لتثبيت الاحتلال الفرنسيين في مصر من جهة، ولفصم عرى الوحدة الأبدية بين عنصري الشعب المصري من جهة أخرى"[56]

"وضمت الحملة (على الصعيد) بين صفوفها عدداً من المترجمين والأدلاء، كما اصطحب الجنرال ديزيه معه المعلم يعقوب القبطي ليدبر لهم الأمور، ويعمل لهم أنواع المكر والخداع ويطلعهم على الخبايا ويصنع لهم الحيل"[57]، وبالفعل كان المعلم يعقوب أصلح مستشار لتوجيه حملة ديزيه ضد

---

[55] نبيل السيد الطوخي- المرجع السابق- عن محفظة فترتها التاريخية من ٣١أغسطس إلى ١٤ سبتمبر ١٧٩٩م (١٥ إلى ١٩ فروكتيدور العام الثامن الجمهوري).

[56] نبيل السيد الطوخي- المرجع السابق (١٧٩٨- ١٨٠١م)- الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة الأولى ١٩٩٧م- ص٢٣، ٢٤.

[57] عبد الرحمن الجبرتي- "مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي: لجنة البيان العربي، الطبعة الأولى، ١٩٦٩، ص٥٣.

مراد بك وذلك لمعرفته التامة بالصعيد، لكونه صعيدي الأصل ولخبرته المالية والإدارية"[58]

دولة جرجا.. فرشوط العاصمة

"كانت رقعة الصعيد بطبيعتها الجغرافية المديدة الوعرة النائية عن القاهرة ملاذ البكوات المنفيين أو الفارين من بطش خصومهم. هناك يستجمعون قواهم ليغيروا على الشمال أو يهزموا الحملات التي تتعقبهم بمشقة، أو يدبروا مع قادتها المؤامرات. وكان صنجق جرجا أقوى حكام الأقاليم من البكوات المماليك، وأطولهم بقاء في منصبه، لاسيما وهو يستند في الجنوب إلى نجدة نظام حكم آخر أشبه بدولة في الدولة عاصمتها "فرشوط" ويمتد نفوذها الفعلي من المنيا .. إلى أسوان . تلك هي دولة شيوخ العرب "الهوارة" الذين استقروا في الصعيد الأقصى بعيداً عن منال السلطة المركزية في القاهرة، وذلك بحيازة "الالتزام" على مساحات متتابعة شاسعة من الأرض عكفوا على العناية بزرعها وإنتاجها، ووفروا ما يقتضيه استغلالها من استتباب الأمن وترشيد الإدارة"[59].

الوقائع

"سارت حملة الجنرال ديزيه في طريقها لتعقب مراد بك حيث علم ديزيه أن مراكز المماليك المتقدمين تقع في "الفشن" فأسرع إليهم، ولكنهم لم ينتظروا وصوله واختفوا، وظل الجيش الفرنسي ستعقب مراد بك ..ووصل الفرنسيون إلى المنيا يوم ٢١ديسمبر ١٧٩٨م ليجدوا المماليك قد تركوها قبل قدومهم بساعات...واستمرت الحملة فاستولت على ملوي، وتقدمت حتى وصلت إلى أسيوط واحتلتها يوم ٢٥ ديسمبر ١٧٩٨م.

"سار الجيش الفرنسي من أسيوط يوم ٢٦ ديسمبر وانقسم إلى فرقتين، الأولى بقيادة الجنرال فريان Friant، أخذت سفح الجبل، والفرقة الثانية بقيادة الجنرال بليار، أوغلت في السهل ثم التقتا في "الغنايم" التي احتلوها.."[60]

---

[58] نبيل السيد الطوخي- المرجع السابق، ص١٢٥.

[59] أنور لوقا (الدكتور)- المرجع السابق- المجلد الأول- الملحق الأول، ص٢٤٦

[60] نبيل السيد الطوخي: "صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ص١٥٧، ١٥٨.

دخول "جرجا" للمرة الأولى:

"علم الجنرال ديزيه- بناءً على تقارير جواسيسه- أن مراد بك ينوي ملاقاته بالقرب من جرجا، لذلك غادر ديزيه "الغنائم" هو وجنوده في طريقه إلى جرجا التي أخلاها المماليك قبل وصول الفرنسيين إليها في الثانية ظهراً يوم ٢٩ ديسمبر ١٧٩٨م"[61]

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يحط فيها الجيش الفرنسي بجرجا ولم يحدث فيها أي اشتباكات بالمماليك أو العربان أو أهل البلاد، "وفي جرجا حط الجيش الفرنسي أثقاله.. لينتظر وصول المراكب التي بها زخائره وهماته ومؤونته"

مراد بك يعد العدة والعتاد:

"علم الفرنسيون- في صبيحة يوم ٢ يناير ١٧٩٩م- أن الفلاحين قد تشجعوا بالمماليك واستعدوا لمهاجمتهم من الخلف على أن يهاجمهم المماليك من الأمام، وعزم مراد بك على الاستيلاء على السفن الفرنسية قبل أن تصل إلى مدينة جرجا وأرسل للقيام بذلك أحد أعوانه المشهورين بالنشاط والحذق واسمه "عثمان بن قمر"، بين أسيوط وجرجا وقطع الطريق بينهما وهيج الأهلين وحملهم على محاربة الفرنسيين.. فسرت روح الثورة في أربعين بلداً في المنطقة الواقعة بين أسيوط وجرجا، وبلغ عدد الثوار ما بين ستة إلى سبعة آلاف من الأهالي... إلا أن الفرنسيين استطاعوا أن يقضوا عليها قبل أن تتحد عناصرها"[62]

تحرك السفن من أسيوط إلى جرجا:

"علم ديزيه أن هناك تجمعاً كبيراً من الأهالي يتشكل بالقرب من سوهاج (نحو أربعة آلاف من الفلاحين، وثمانمائة من الفرسان)، وقرر أن يقضي على هذه الثورة قبل أن يتسع مداها، وأمر ديزيه الجنرال "داڤو Davout" بالرحيل فوراً من جرجا على رأس قواته للقضاء على هذه الثورة فوصلها في ٣ يناير ١٧٩٩م، ولم يستطع الأهالي الصمود طويلاً.. ففروا هاربين بعد أن تركوا خلفهم ثمانمائة قتيلاً على أرض المعركة.[63]

---

[61] المرجع السابق: ص١٥٩.

[62] المرجع السابق: ص١٦٣.

[63] المرجع السابق: ص١٦٤.

"وما أن عاد الجنرال داڤو إلى جرجا حتى علم الجنرال ديزيه بأن هناك حشداً كبيراً تكون بالقرب من أسيوط (فلاحين وعرب من المنيا وبني سويف والفيوم).

"أحس ديزيه بالقلق، وازداد قلقه بسبب تأخر أسطوله الذي يحمل المؤن والمعدات ولم تصله حتى الآن أخبار أكيدة عن ميعاد وصوله إلى جرجا، وهنا كلف ديزيه الجنرال داڤو بأن يزحف من جديد على رأس فرسان لمقاومة المتمردين من الأهالي، وأن يبذل أقصى جهده في العمل على سلامة الأسطول الفرنسي الذي انقطعت أخباره وتأخذه وصوله إلى جرجا.

"سار الجنرال داڤو على رأس قواته من الفرسان تجاه طهطا فوصلها في ٨ يناير وهرب الفرسان العرب تاركين الأهالي الفلاحين... ثم تابع الجنرال داڤو سيره فوصل بفرسانه إلى أسيوط يوم ١١ يناير ووجد السفن الفرنسية راسية تجاه المدينة، ثم تابعت السفن الفرنسية سيرها فوصلت إلى جرجا يوم ١٨ يناير حيث كانت تتقدمها الفرسان بقيادة الجنرال داڤو، وكانت السفن الفرنسية تحمل الذخائر والأقوات لقوات الجنرال ديزيه ومدداً من ١٥٠ جندياً بما جعل ديزيه يفكر في الاشتباك مع مراد بك وأعوانه في معركة فاصلة."[٦٤]

ثورات المماليك وعرب الحجاز:

"وعندما علم الجنرال ديزيه.. بأن مراد بك في طريقه إلى الالتقاء بمحمد بك الألفي في أسيوط، اتجه ديزيه إلى أسيوط لكي يمنع لقاء مراد بك بمحمد بك الألفي[٦٥]. وبينما هو منشغلاً في أسيوط وصلته معلومات تفيد أن الأهالي والمماليك وعرب الحجاز قد استأنفوا حركاتهم الثورية في مديرية جرجا وأنهم احتشدوا بالبر الشرقي لقطع مواصلات الجيش الفرنسي[٦٦]، فأدرك الجنرال ديزيه خطورة الموقف، وعلى الفور كلف الجنرال داڤو وفرسانه بمهمة إخضاع البلاد الثائرة في هذه النواحي والقضاء على مقاومتها، كما أرسل ديزيه أوامره إلى موراند Morand كومانادان جرجا أن يذهب إلى المرتفعات المشرفة على الضفة اليمنى للنيل قبالة جرجا، ويهاجم الثائرين- أو يعترض مسيرتهم في حالة انسحابهم"[٦٧].

---

64 المرجع السابق: ص١٦٥.

65 المرجع السابق: ص١٦٦.

66 كان على يعقوب ورفاقه تأمين المواصلات، والبريد، ونقل المؤونة للجيش الفرنسي.

67 المرجع السابق: ص١٦٧.

"وهنا شعر عرب ينبع بحرج موقفهم... وعبر النيل أعلى برديس[٦٨] وعندما علم قائد جرجا بذلك أخذ مائتين وخمسين رجلاً من حاميته، وذهب لملاقاتهم في برديس التي وصلها بعد ظهر يوم ٦ أبريل، فخرج لملاقاته عرب ينبع وكثير من الفلاحين والمماليك وعرب من قرية برديس... فرد عليهم بالطلقات النارية التي أصابت العديد من الثوار، وفر الباقون تحت جنح الظلام الذي يقترب، فاستغل موراند هذه الفرصة وعاد إلى جرجا ليحمي مواقع الفرنسيين بها".[69]

الجيش القبطي في جرجا:.

يذكر التاريخ أن يعقوب ورفاقه "رجال الفيلق القبطي قبيل تأسيسه"، قد شاركوا بدور البطولة في تأمين حركة المواصلات ونقل المئونة إلى الجيش الفرنسي في طول البلاد وحتى جنوب أسوان، كما كان لهم الفضل- لاسيما مع واسع درايتهم بالطرق والشعاب في الصعيد- في دحر قوات المماليك والعثمانيين وشركائهم من البدو وعربان البلاد وقبائل الحجاز التي عبرت لنجدتهم.

وكان من أشهر من حاربوا إلى جوار يعقوب غبريال سيداروس الذي عمل دليلاً للحملة الفرنسية ومترجماً للجنرال كليبر في نفس الوقت، ثم أصبح وكيلاً في فرقة الجنرال ديزيه.

ويذكر الدكتور أنور لوقا عنه ذلك فيقول "أما عن مهاراته العسكرية فقد اشترك مع عمه (الجنرال يعقوب) في موقعة جرجا التي أنهزم فيها المماليك والبدو الذين ساعدوا المماليك في الحرب، وانهزم فيها المماليك شر هزيمة، وكذلك حارب في معركة أسوان وعين بعدها وكيلاً للفيلق القبطي"[٧٠].

---

[68] قرية تتبع حالياً مركز البلينا بمحافظة سوهاج.
[69] المرجع السابق: ص١٦٨.
[70] أنور لوقا- المرجع المذكور.

الجيش القبطي (يعقوب ورجاله) يؤمِّن حركة المراسلات، والتموين "العسكري" بين تشكيلات الحملة

مقدمة[71]

"دالت دولة همام، ودالت دولة علي بك الكبير. ولم تبق سوى السيادة الاسمية للسلطان التركي الجالس في إسطنبول، والفعلية لأعوانه- وأعدائه في الوقت ذاته- من المماليك، الذين نشأوا على التناحر كذلك فيما بينهم، والذين ولاهم "سليم الأول" منذ دخوله مصر حكاماً- بصيغة الجمع- على أقاليمها كي لا يستقل دونه أحد بهذه المستعمرة. لقد وضع فوقهم نائبه "الباشا" في القاهرة، وحولهم عسكره أي أوجاقاته السبعة وأهمها الانكشارية أو المستحفظان.

وتفكك القطر لا إلى شمال وجنوب فحسب بل إلى "كاشفيات" صغيرة بلغت في الصعيد وحده- عدا ولاية جرجا- أكثر من عشرين "كاشفية" (سبع كاشفيات بمصر الوسطى هي: أطفيح، الجيزة، الفيوم، بني سويف، المنيا، أشمونين، ومنفلوط. وأربع عشرة كاشفية بمصر العليا هي: أسيوط، أبو تيج، طما، طهطا، إخميم، فرشوط، برديس، هو، بهجورة، قنا، قوص، إسنا، إبريم، الواح أي "الواحات"). وظن المسيطر التركي أن في تفتيت وحدة الصعيد الإدارية هكذا ما يدرأ خطر العربان الطامعين في الأرض وبخاصة عربان الهوارة". فكيف يمكن التواصل- لاسيما بين وحدات الجيش الفرنسي في حملة ديزيه- على جبهة امتدادها نحو ألف كيلومتر (من الجيزة إلى جنوبي أسوان)؟!!

وكان لابد من تواصل فرق الجيش الفرنسي على طول جبهة الصعيد مع قائده "ديزيه" من جهة، ومع بعضه البعض (المؤخرة بتموينها، مع الجنود الميدانيين) من جهة أخرى لذا فقد "نظم الجنرال يعقوب فرقة من السعاة (الهجانة) تتولى الاتصالات بين الجيوش المختلفة في أنحاء مصر بما يشبه البريد في العصر الحديث، وقد أعجب الجنرال ديسيه بتنظيمه لإدارة البريد لأنها جعلته على اتصال دائم بجنوده في الشمال والجنوب وتحريكها طبقاً لخططه الحربية، وكان يرسل الجرحى للقاهرة ويتزود منها بالمؤن

---

[71] أنور لوقا.

والذخيرة"[٧٢]، ومن الطبيعي أن يستخدم يعقوب"رفاقه"- لاسيما المدربون منهم على القتال- في حركة التنقل برشاقة طوال خط الصعيد، فهم أدرى بشعاب الصعيد، وأجدر على قطع المسافات الشاسعة بأقصر الطرق.

روابط البريد[٧٣] (يناير سنة ١٧٩٩م):

ويذكر الدكتور أنور لوقا في مرجعه القيم: "استمرت العمليات (العسكرية) في الصعيد ثمانية عشر شهراً عصيباً، تتبع يعقوب خلالها عن كثب سقوط فئة المماليك، رغم استنجادهم بالعربان والنوبيين والحجازيين واستصدار منشورات من السلطان لتأييدهم.

وأثناء المعمعة- منذ يناير سنة ١٧٩٩م- تولى يعقوب مهمة إنشاء خدمة بريدية أساسية تربط بين الحاميات الفرنسية المتفرقة التي رابطت في مواقع مختلفة جلا عنها المماليك وبين جرجا التي اتخذها ديزيه مقراً لقيادته. فقام بتشكيل قوافل صغيرة من الهجانة، حدد لها مراحل بمحطات تتلاقى فيها على التوالي، ووفر لها أن تسير ذهاباً وإياباً في حراسة دوريات مسلحة متأهبة لردع البدو وقطاع الطرق الذين استفحل خطرهم، حتى لقد تصدت عصابتهم- قبل شهر واحد- لقافلة ضخمة قوامها مائتا تاجر قدموا من الهند عبر البحر الأحمر وسلكوا الطريق المعتاد من القصير إلى قوص.

وكانت مشكلة تأمين القوافل قد تفاقمت وأدت إلى أزمة دولية. فلم تكن اعتداءات البدو أو قطاع الطرق هي شر العقبات التي باتت تعترض تجارة البحر الأحمر المتزايدة الحجم في أواخر القرن الثامن عشر، بل إن جشع المماليك أنفسهم بما فرضوه من الإتاوات على نقل البضائع والرسائل كان العائق الأكبر، مما أثار قلق البيوت التجارية وغضب القناصل واحتجاجاتهم العديدة، التي اشتدت لهجتها من جانب بالدوين وماجلون ممثلي إنجلترا وفرنسا. وأعلنت الحملة الفرنسية أنها جاءت لتأديب المماليك.

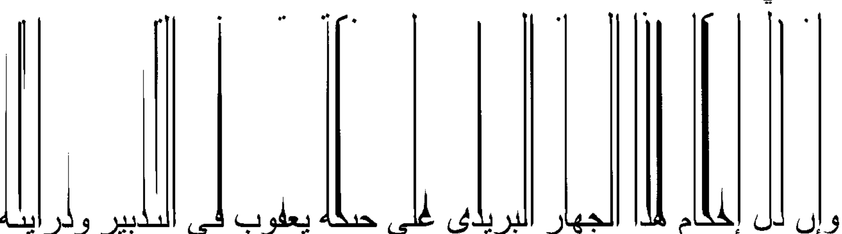
وضع يعقوب نصب عينيه- وهو العارف بحيوية تنقل القوافل والرسائل- لا أن يتيسر التواصل فحسب بل أن تنضبط سرعته. فيسافر البريد يومياً بين المراحل الجنوبية الآتية: من جرجا إلى برديس، ومن برديس إلى فرشوط، ومن فرشوط إلى هو، ومن هو إلى دشنا، ومن دشنا إلى السمطا، ومن

---

[72] لجنة التاريخ القبطي- "الجنرال يعقوب واستقلال مصر"، القاهرة ١٩٣٥ م

[73] أنور لوقا، الدكتور، "موسوعة من تراث القبط"، المجلد الأول، الملحق الأول.

السمطا إلى قنا ثم من قنا إلى إسنا. كما يسافر شمالاً من جرجا إلى أسيوط فالمنيا وبني سويف.



وإن دل إحكام هذا الجهاز البريدي على حنكة يعقوب في التدبير ودرايته الإستراتيجية بالأرض، فقد اشتد وعي الصعيدي، وهو يضم بلدة إلى بلدة، بأن مصر جسم واحد، وأن المماليك قطعوه إرباً. هي "مقاطعاتهم" التي أباح لهم العثمانيون أن يتقاسموها، أي أن يتنازعوا عليها ويتطاحنوا لكي تخلو السيادة في أخر الأمر للسلطان.

فطن يعقوب إلى آثام ذلك التقطيع المصطنع. وأحس عندما عمد إلى تربيط الأوصال كدبيب يسري في أعضاء كائن حي متكامل الوظائف شيئاً فشيئاً- وأيقن أن ما يلزم البلاد لكي تبلغ وحدتها المكانية التامة وتسترد بنيتها الأصيلة التي صاغها نهر النيل- وقديماً سجل التاريخ مولد مصر بتوحيد قطرها. هو حكومة شاملة جادة تنطلق من الإحساس باندماج مقومات المجتمع وإمكاناته المتضافرة وتسعى إلى ترشيدها. ولن يمهل التاريخ يعقوب لتحقيق ذلك، وإنما سيسند هذا الدور لمحمد علي. فسينفق محمد علي سنوات حكمه الأولى في تحطيم قوى اللامركزية حتى يستقيم له بناء الدولة الحديثة في مصر".

بعض المعارك العسكرية للجيش القبطي

ذكرنا في الجزء السابق بعض المعارك التي بلي فيها ضباط وجنود الفيلق القبطي بلاءً حسناً، وهي:

"موقعة المنشية"[74] ١٧٨٦م

وكانت أهم الواقعات التي أبلى فيها يعقوب بلاءً حسناً "موقعة المنشية" واضطر إلى مقاتلة من هاجموه من الأتراك، حيث انهزم رجال حسن باشا الجزايرلي ومنذ تلك المعركة- التي سبقت الحملة الفرنسية بنحو اثنتي عشر سنة- التي أبلى فيها يعقوب على صهوة جواده بلاء الفرسان الذين يحسنون الكر والفر، تغلغل في وعيه معنى الاستقلال ووجوب الدفاع عن النفس والأرض بالسلاح[75].

---

74 أنظر الباب الثاني، الفصل الأول.

75 أنور لوقا: "موسوعة من تاريخ القبط"، المجلد

كمين "عين القوصية El-Qousieh"[٧٦] (٢٤ديسمبر ١٧٩٨م):

وتجلت فيها بطولة يعقوب في النزال يوم وقع بمفرده في كمين نصبه المماليك ناحية "عين القوصية"، وظل على فرسه يناوشهم بالكر والفر إلى حين وصول طليعة ديزيه في (٢٤ديسمبر ١٧٩٨م)"[٧٧].
ولما انتصر يعقوب في واقعة "القوصية "، وأبدى من ضروب البسالة ما جعل الجنرال يقلده سيف الشرف.

موقعة أسوان (١٦مايو ١٧٩٩):

وحارب الكولونيل غبريال سيداروس مع عمه (يعقوب) ورفاقه في معركة أسوان، وانتصروا انتصاراً عظيماً، وعين بعدها غبريال وكيلاً للفيلق القبطي"[٧٨].

موقعة جرجا[٧٩] ("معركة جرجا"-٣١أغسطس إلى ١٤ سبتمبر ١٧٩٩م):

يذكر التاريخ أن يعقوب ورفاقه "رجال الفيلق القبطي قبيل تأسيسه"، قد شاركوا بدور البطولة في دحر قوات المماليك والعثمانيين وشركائهم من البدو وعربان البلاد وقبائل الحجاز في جرجا.
وكان من أشهر من حاربوا إلى جوار يعقوب غبريال سيداروس، فقد اشترك مع عمه (الجنرال يعقوب)، وأنهزم فيها المماليك والبدو شر هزيمة.

وهناك أيضاً الموقعة الشهيرة التي حدثت في غضون فوضى العاصمة التي عرفت فيما بعد بـ"ثورة القاهرة الثانية"، وهي موقعة الأزبكية.

موقعة الأزبكية (أبريل سنة ١٨٠٠):

مقدمة

تدور أحداث هذه الموقعة في المنطقة المعروفة بالأسماء " الدرب الواسع- الرويعي[٨٠]- حارة النصارى- خلف الجامع الأحمر- ظاهرة الحارة-

---

[76] أنظر الباب الثاني، الفصل الأول.
[77] أنور لوقا: "موسوعة من تراث القبط"، المجلد الأول، الملحق الأول.
[78] أنور لوقا- المرجع المذكور.
[79] نبيل السيد الطوخي: "صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية" عن محفظة فترتها التاريخية من ٣١أغسطس إلى ١٤ سبتمبر ١٧٩٩م (١٥ إلى ١٩ فروكتيدور العام الثامن الجمهوري)
[80] نسبة إلى جامع الرويعي الذي أنشأه السيد أحمد الرويعي شاهبندر التجار في مصر في القرن التاسع الهجري.

الأزبكية"، وبعض هذه الأسماء مازال مستخدماً (حتى ولو اختلفت حدوده عما كانت)، والبعض الآخر تغير.

يصف الجبرتي الاستعدادات التي جعلت قبط الأزبكية يسلحوا مقابلها ويتحصنوا بـ"قلعة يعقوب" لمواجهة أي هجوم عليهم فيقول: "أنشأ عثمان كتخدا معملاً للبارود ببيت قائد أغا بخط الخرنفش، وأحضر الفندقجية والعربجية والحدادين والسباكين لإنشاء المدافع وبنبات وإصلاح المدافع التي وجدوها في بعض البيوت وعمل العجلات والجلل (الكور الحديدية التي توضع في المدفع) وغير ذلك من المهمات وأحضروا إليهم ما يحتاجونه من أخشاب وفروع شجر وجمعوا معهم الحدادين والنجارين والسباكين وأرباب الحرف والصنائع، فكانوا يعملون في بيت القاضي والخان الذي بجانبه والرحبة (المكان المتسع) التي في بيت القاضي من جهة المشهد الحسيني، ورصد أموالاً كثيرة للعاملين فيه وأرسلوا وأحضروا باقي المدافع الكائنة بالمطرية فكانوا كلما أدخلوا مدفعاً أحضروه بجمع كبير من الأوباش والعامة والأطفال وهم يصيحون : "الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان[81]" وغير ذلك.

وفي اليوم الثاني حضر محمد بك الألفي وأعد المتاريس بناحية السويقة التي عند درب عبد الحق وعطفة البيدق وكان معه مماليكه وأصحابه وبعض أشخاص من العثمانيين وأظهروا الشجاعة خاصة إسماعيل كاشف المعروف بأبي قطية الذي حارب واستولى على ناحية رصيف الخشاب وبيت مراد بك الذي أصله بيت حسن بك الزبكاوي وتحصن فيهما، وحسن بك الجداوي فتحصن بناحية الرويعي، وكان يفارق هذه المنطقة في بعض الليالي ليساعد الجهة الأخرى.

الأزبكية:

يذكر الجبرتي المؤرخ قول صديقه الشيخ حسن العطار وهو يصف منطقة الأزبكية حتى يعطي للقارئ فكرة عما وصل إليه حالها: "وأما بركة الأزبكية[82] فهي مسكن الأمراء، وموطن الرؤساء، قد أحدقت بها البساتين الوارفة الظلال، العديمة المثال، فترى الخضرة في خلال تلك القصور

---

[81] هكذا كان ينطق العامة اسم "برطلمين- برطلمان" الشامي الذي عينه الفرنسيون

المبيضة، كثياب سندس خضر على أثواب من فضة، يوقد بها كثير من السرج والشموع، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع، وجمالها يدخل على القلب السرور .. ألخ

موقعة الأزبكية

ولم يكن الجيش القبطي يحارب دون إستراتيجية دفاعية أيضاً، فالهدف من قتاله- للمماليك أو العثمانيين، أو الرعاع من العامة الذين يقودهم هؤلاء أو أولئك- هو هدفٌ نبيل، وهو إما الدفاع عن الأهالي العزّل، أو تحريرهم من ظلم محدق بهم.

وذكر كاتب "تاريخ الأمة القبطية"[83] عن إحدى هذه المعارك ذات الإستراتيجية الدفاعية.

"وقتلوا أيضاً النصارى الذين كانوا في بولاق ونهبوا بيوتهم وعلى كلٍ، لم ينج من أيديهم من النصارى في هذه الفتنة سوى الذين تسلقوا السور، وفروا إلى معسكر الفرنساويين، والذين افتدوا أنفسهم بالمال، وسكان الأزبكية، فإن يعقوب - صاحب القلعة المتقدم ذكرها- كان قد أخذ على عهدته حماية تلك الجهة والمدافعة عنها.

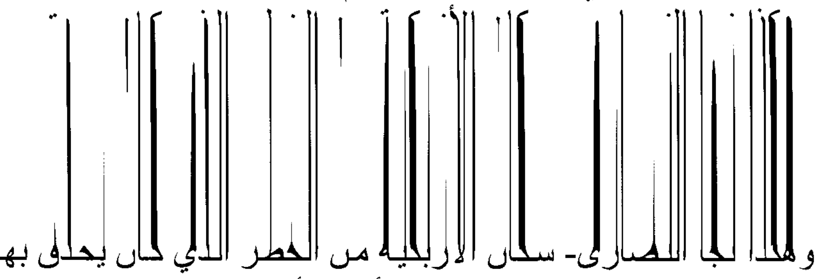
فاستعد بالعساكر الأقباط والسلاح، وتحصن قلعته، وهدم بعض الدور التي بآخر شارع القبيلة من جهة قنطرة الدكة، وجعلها حصناً وأقام بها العساكر المستعدة، فكانت جهة الأزبكية التي يسكنها النصارى الأقباط من الدور المهدومة من الجهة الأخرى ووزع عساكره في نقط مختلفة.

وكان المحارب له وواقف أمامه برجاله، رجل يسمى حسن بك الجداوي، فكان يهجم على تلك الجهة المرة بعد الأخرى، فيصده يعقوب ويدفعه عنها، فيعود خاسراً، واستمر الحال إلى أن انتهت الفتنة وخرج عساكر العثمانيين

---

83 وبالفعل ما فكر فيه الجنرال يعقوب حدث فقد دبر المسلمون خطة للهجوم على الأقباط لإبادتهم (كما حدث وذبح المسلمون المسيحيين في مدينة دمياط أيام هجوم الصليبيين عليها) كان كل غرض الجنرال يعقوب هو الدفاع عن إخوانه الأقباط ضد المهاجمين من المسلمين فعندما شعر بقرب تنفيذ خطة المسلمين هدم بعض البيوت التي خربها المسلمين في الحوادث الأخيرة وبني على أنقاضها سوراً عاليا ضخما حول الحي القبطي به فتحات لإطلاق نيران البنادق على المسلمين الذين يقتربون من الحي القبطي للاعتداء على الأقباط، وشيد أبراجاً فوقه من داخل السور وجعل للسور بوابتين وكلف جنديين يحملان السلاح على أكتافهما لحراسة البوابة لمنع كل من يحاول الدخول وحفر أنفاقاً لهروب الأقباط إذا حدث واحتل المسلمين هذا الحي وأصبح المكان حصنا ، وتمكن الجنرال يعقوب من أن ينقذ الأقباط من مذبحة دموية كانت ستحدث بالدفاع عنهم ضد من يريد أن يقتحم حيهم الآمن.

من القاهرة بالرغم عنهم من شدة قوة مدافع الفرنساويين ونيرانه، ولحقوا بيوسف باشا الوزير الذي فر هارباً من أمامهم.



وهكذا نجا النصارى- سكان الأزبكية من الخطر الذي كان يحدق بهم، ولاسيما البطركخانة، فإنها كانت مطمح أنظار أهل الفساد. وما الفضل في ذلك إلا ليعقوب ورجاله.

وقيل أن بعض الثائرين هجموا على جهة شارع القبيلة- المعروف الآن بالسوق الكبير وسوق النصارى- من نقطة مهملة، ودخلوا درب الجنينة، وأغلقوا البوابة ووضعوا وراءها أحجاراً فأسرع يعقوب لإنقاذ من بها بطريقة لم تكن تخطر على البال، ذلك أنه أخرج من معاصره ومعاصر غيره التي بجهة الجامع الأحمر، جميع فحول الجواميس التي كانت فيها، وأوقفها أمام بوابة الدرب وحصرها بين قوتين من العسكر وأمرهم أن يرشقوا أجسامها بأسنة الرماح فتزاحمت على البوابة وتقوت عليه فتزحزحت الأحجار التي وراءها وانفتحت، فدخل العسكر وقبضوا على الثائرين.

أثناء هذه الثورة، اختل حال القاهرة اختلالاً لا مزيد عليه، وتجاوز أهل الفساد الحد بأن خربوا ونهبوا حتى بيوت ومحلات التجار المسلمين، وتعدوا على كرامة علمائهم ومشائخهم وأهانوهم إهانة يخجل الكاتب من ذكرها ووصفها".

الباب الثالث

الفصل الأول

- فكرة تكوين جيش وطني مصري
- تفجر الإرادة السياسية
- فكرة تكوين جيش وطني مصري
- يعقوب يمتثل لآراء الفرنسيين السياسية
- حتمية المقاومة
- معاهدة العريش
- موقعة عين شمس
- ثورة الرعاع "القاهرة الثانية"
- البدء في تأليف الجيش القبطي
- نعرة دينية استعلائية
- عجز في الجيش الفرنسي
- تطوع الشباب القبطي
- فئات الجيش القبطي "المجندون"
- كم بلغ عدد رجال الفيلق القبطي
- أهالي الجنود يلتمسون تسريح أبناءهم

الفصل الثاني

- مبادئ المدرسة العسكرية
- الزي العسكري لجنود الفيلق القبطي
- جنود أقباط ومسلمون
- تسليح الجيش، وإعداد التحصينات والمتاريس
- قلعة يعقوب
- الجيش القبطي في أوربا
-



مقدمة:

كان يعقوب- الذي انفرد عن اترابه في كثير من الخصال- يمثل بغيرته اشتياق كثير من وطنيي الشعب المصري الذين لم تسنح لهم الفرصة أن يعبروا عن ذلك- كان يمثل اشتياق الكثيرين إلى استقلال هذا البلد العظيم الذي تلقفته الأيادي العابثة من يد ليدٍ، ومن محتل لآخر، مما أفقد الشعب- أقباطه ومسلميه- الشعور بالأمان والاستقرار في ظل فساد عاث في البلاد إثر صراع من أجل الجاه والمال الذي كان يُجمع ليس كضريبة تُنفق لتنية موارد مصر أو على تحسين مرافق البلاد، وإنما كان يُجمع للمصلحة والثراء الشخصي- كما في حالة "المماليك"- أو يُجمع لكي يورَّد لخزينة "العاصمة" (الأستانة)- كما في حالة الدولة العثمانية- وما أشبه الليلة بالبارحة، فقد كان هذا هو الحال دائماً منذ الفتح العربي لمصر، فلقد كانت الجزية تُرسل إلى العاصمة "المدينة"، أو "بغداد"- (في حالة الدولة العباسية).

ولكن متى تسنح الفرصة لهؤلاء الأوفياء المخلصين لتحقيق هذا الحلم، وهم لا يزالوا يرزحون تحت وطأة محتل طاغ؟ على أي الأخوال.. لقد ظل الحلم يراودهم وينمو بداخلهم، ويتسع آفاقاً لاسيما مع اختلاط يعقوب ورفاقه بأولئك الذين أتوا من بلاد الحضارة محملين بأحدث الأساليب السياسية والعسكرية.

فكرة تكوين جيش وطني مصري

يعقوب يسجل "العمل الجماعي"

"ويعود ديزيه إلى أسيوط في ١٥ مايو ١٧٩٩م فيتخذها مقراً لقيادته عدة أسابيع. يعقوب هنا رب الدار. والوقت سانح للتداول في مقدرات الأفق المفتوح بعد انجلاء المماليك. وهو يلمس الفرق بين ما اعتاده من أبهة سليمان بك- مملوكه الذي كان يخدمه- وأنانيته واستبداده بأتباعه وبين تساوي الفرنسيين في الخضوع لنظام عام يشملهم، وحرصهم على جدولة ساعات

اليوم، وأسلوبهم الجماعي في التشاور لحل المشكلات ووضع الخطط واستخلاص القرار المناسب.

تفجر الإرادة السياسية:

"كان ديزيه- قائد الحملة الفرنسية على صعيد مصر- من أنجب أبناء الثورة الفرنسية، تعادل غزارة ثقافته جذوة حماسه، مما رفعه إلى رتبة الجنرال وهو في الثلاثين من عمره. ولكنه ظل بسيط الطبع لا يتأثر بعنجهية العسكريين، يقول زميله الجنرال بليار في مذكراته عن تلك الفترة: "كنا نجتمع عند الجنرال ديزيه فيعرض كل منا مقترحاته وخططه ويشرح وجهة نظره وآراءه . وكان مدار الأحاديث حول السلام والحرب، والنظم السياسية، وأصل الشعوب". ونوقش الواقع المصري، وكيف انحطت إلى دركه حضارة عريقة. ومنذ قرون والحكومات الجائرة ترهق الشعب والأرض. وبالمقارنة بين أمجاد الماضي، تدهور الحاضر وآمال المستقبل، قاس يعقوب- وهو يروي أطرافاً من تجارب أمسه في عهد على بك الكبير- مدى التغيير الحادث. وما تقييم المسيرة بالنظرة التاريخية المترامية إلى إيجابيات الغد القريب سوى مفهوم "التقدم" وهي الفكرة التي دفعت الفرنسيين إلى "التغيير" أي إلى الثورة. لقد أزكت تلك الأسمار لدى يعقوب إرادة سياسية. لقي طموحه القديم إلى الحرية ما يدعمه الآن من منطق الواقع، ووجد انطلاقه نحو الاستقلال وسائل عملية لبلوغه"[٨٤].

فكرة تكوين جيش وطني مصري

"وبعد أن تعامل يعقوب يوحنا مع الفرنسيين وعرف أفكارهم عن الحرية والعدل والمساواة نبذ ولاءه للمماليك والعثمانيين وفكر في أن يستفيد من الفرنسيين وتكوين جيش وطني لأول مرة في مصر لحماية الأقباط من أي اعتداء يتعرضون له، فجمع يعقوب ألفين من شباب الأقباط من الذين كانوا يعملون مع الفرنسيين كصناع وعمال في الصعيد ويفهمون بعض الفرنسية ووضعهم تحت التدريب العسكري الفرنسي المتحضر كما قام الجنرال كليبر بانتقاء ضباط لتدريبهم"[٨٥].

---

[84] أنور لوقا، "موسوعة من تراث القبط"، المجلد الأول، الملحق الأول، ص٢٤٢

[85] صبحي وحيد، "أصول المسألة المصرية"، ص ١٢٩ – ١٣١

يعقوب يمتثل لآراء الفرنسيين السياسية:

وعن أهمية ودور الحملة كما فهمة الجنرال يعقوب يوحنا أوضح كتاب "أصول المسألة المصرية"[86] ما يلي: "وقد أخفقت الحملة الفرنسية عسكريا ولكنها أفلحت في توجيه أضوء العلم الحديث إلى ماضي مصر البعيد ولفت الدول لفتاً عنيفاً إلى أهمية مركزها السياسي ثم فتح نفوس بعض أبنائها للتيارات الغربية الحديثة، ونحن نجد أول صدى هذه التيارات في مشروع المعلم يعقوب لتحرير مصر من الحكم العثماني، ويعقوب من الأقباط الذين لازموا الفرنسيين منذ بدأت حملتهم فتمثل آراءهم السياسية ... وقد اتجه الألفي بعد يعقوب إلى الإنجليز واستعان بهم في محاولة استعادة الحكم في مصر... ولكنه لم يكن في ذلك أكثر من حاكم (أجنبي) معزول يلتمس السبيل إلى استرداد حكمه فلم يرتفع إلى الوعي الذي بلغه يعقوب"[87].

حتمية المقاومة

"تولى يعقوب بعد عودته من (حملة) الصعيد، في سبتمبر ١٧٩٩م، إدارة النظام المالي في مصر، إلا أنه لم يستطع تحقيق أي إصلاح تحت ضغط الأحداث التي تلاحقت وأجبرته على تكوين قوة مسلحة.

معاهدة العريش

"كان كليبر قد عقد مع ممثلي الدولة العثمانية في ٢٤يناير سنة ١٨٠٠م معاهدة العريش التي نصت على جلاء الفرنسيين وجدولته. وطوت الدولتان صحيفة القتال. ولكن الحكومة الإنجليزية رفضت إقرار الاتفاقية، فانتهز العثمانيون الفرصة ونقضوا عهدهم. وزحف يوسف باشا الصدر الأعظم حتى بلبيس، وتقدمت طليعة جيشه بقيادة ناصف باشا نحو المطرية.

موقعة عين شمس

"وهب الفرنسيون غاضبين فهجموا على الأتراك هجوماً حاسماً في موقعة عين شمس (٢٠مارس١٨٠٠م). وهرب ناصف باشا وبعض رجاله فتسللوا إلى القاهرة ومعهم من المماليك إبراهيم بك والألفي وحسن الجداوي.

---

86 عزت أندراوس، الموقع الإلكتروني المذكور.

87 ومن المعروف أيضاً أن رائد الدولة الحديثة- محمد علي باشا- اعتمد في تأسيس الجيش الوطني المصري ١٨٠٥م على المدربين الأجانب مثل "سليمان باشا"، الذي كان.....

ويسجل عبد الرحمن الرافعي ما يلي: "ومع أن ناصف باشا كان في الواقع فاراً في ميدان القتال، وبالرغم من أن وصوله كان بعد أن حلت الهزيمة بالجيش العثماني، فإن الإشاعات قد طارت في المدينة بأن الجيش الفرنسي انهزم.

ثورة الرعاع "القاهرة الثانية"

"وأشعل الهاربون- ليقلبوا الأوضاع- فتناً طائفية احتدمت ضد الأقباط، ويلقى الجبرتي المسئولية على نصوح باشا الذي نادى: "اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم"، ويبرز دور الحجازية والمغاربة في ارتكاب المنكرات من نهب وقتل، "ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعاً فيما على رأسها وشعرها من الذهب"[88]. وارتاع بعض أغنياء الأقباط فغادروا الحي ولجأوا إلى دور بعض أصدقائهم المسلمين في مصر القديمة. ولم يتزحزح يعقوب بل تحصن في الحي ونظم الدفاع عنه والعيش فيه بشجاعة وحكمة طوال حصار دام عشرين يوماً. ويقول الجبرتي: "أما يعقوب فإنه كرنك في داره بالدرب الواسع جهة الرويعي، واستعد استعداداً كبيراً بالعسكر والسلاح، وتحصن بقلعته التي كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أي ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت)، فكان معظم حرب حسن بك الجداوي معه".

---

88 وهكذا "لقد حدث فعلاً ما توقع فقد قام الجنرال يعقوب يوحنا كما ذكر الجبرتي بحماية الأقباط من عامة المسلمين وغوغائيهم والحشرات- كما كان يحلوا للجبرتي تسميتهم- من القتل والاغتصاب للمسيحيين الذين عاشوا في قلعته، في الوقت الذي أباد المسلمون المسيحيين الموجودين في أحيائهم ذبحاً، وقطعوا رقابهم لأجل الحصول على بقشيش من العثمانيين".

البدء في تأليف الجيش القبطي



واسفرت المحنة عن تأليف جيش من الأقباط، نظمه يعقوب على نفقته الخاصة، وجمع في صفوفه شباباً من القاهرة ومن الصعيد. وتلك ظاهرة فذة في تاريخ مصر"[89].

نعرة دينية استعلائية:

ويبدو أن النعرة الدينية الاستعلائية كانت تهيمن على المناخ المصر في تلك الآونة بسبب المد الإسلامي الذي كان يتزعمه من يدعون بـ"المجاهدون"، أمثال السيد عمر مكرم، وحسن بك الجداوي وغيرهم ممن كانوا يؤثرون بسلاح الدين على العامة، ليؤكدوا لهم أن الغزاة- المماليك والعثمانيين وما لهم من فساد- لهم أقرب لمسلمي مصر من الكفرة "مسيحيي مصر"، فما بالهم بالكفرة "الفرنجة"!!! مما حدا بالفرنسيين أن يبدأوا بتقبول تجنيد النصارى بين صفوفهم، وفي هذا يذكر المؤرخ المسلم الجبرتي: "وأخذوا الكثير من نصارى الأروام والقليونجية الذين كانوا مع مراد بك، وبعضهم كان بمصر فأدخلوهم في عسكرهم وأعطوهم أسلحة وانتظموا في سلكهم"[90]

وعلى الرغم من أن هذا الجيش كان قد أطلق عليه "الفيلق القبطي"- حيث كان معظمه من القبط (مسيحيي مصر)، إلا أنه كان يحوي بين صفوفه بعضاً من الجنود المسلمين الوطنيين الذين التحقوا للمشاركة في الزود عن وطنهم "مصر" ضد فساد المماليك والعثمانيين[91].

عجز في الجيش الفرنسي

وها هي ذي الفرصة قد سنحت، حيث "أدّى العجز في عدد الجنود الفرنسيين- الذي ينسبه البعض إلى إهمال الجنرال "مينو"- إلى دفع الفرنسيين بتجنيد عدد من شباب الأقباط وتكوين "كتيبة قبطية" في الجيش الفرنسي تقوم بمساندته في رد الهجمات التي يتعرض لها".

---

89 أنور لوقا- المرجع السابق، المجلد الأول، الملحق الأول، ص ٢٤٢.
90 الجبرتي- "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" ص ١٧٦.
91 نبيل السيد الطوخي- المرجع السابق، ص٣٣٥

وقد "لاحظ المؤرخ شفيق غربال أن هذا الجيش "الفيلق- الكتيبة" هو **"أول جيش كون من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة"**، وقد ذهب بعض الكتاب إلى إدراج هذا الفيلق القبطي في قائمة التشكيلات التي استحدثها بونابرت في مصر وضمها إلى وحدات جيشه للاستعاضة بها عما يفقده من الرجال واختصاصاتهم منذ ما انقطعت صلته بفرنسا بعد شهر واحد من نزوله مصر، إذ حطم الإنجليز أسطوله في موقعة أبي قير البحرية (١ أغسطس ١٧٩٨م). كانت تلك الفرق- كما تدل عليها أسماؤها- "الإنكشارية"، "المماليك"، "اليونان"، "السوريون". تتشكل من أغراب نزحوا إلى مصر وافدين من مختلف أنحاء الإمبراطورية العثمانية. فهم أشبه بالجنود المرتزقة في العصور السابقة.

ويكفي لتمييز "الفيلق القبطي" أنه لم يظهر إلا مؤخراً- في أبريل ١٨٠٠م- أي بعد انقضاء ثلاثة أشهر على تقرير جلاء الفرنسيين في معاهدة العريش، وأنه تعبير عن مقاومة حتمية ضد المماليك والترك في سياق علاقة سياسية ترجع إلى ما قبل الحملة الفرنسية، وأنه تنظيم صدر عن تمويل مالي ذاتي"[٩٢].

وستتجلى هذه الأصالة في مشروع استقلال مصر الذي أصبح هدف المعلم يعقوب.

ومما لاشك فيه أن الحملة الفرنسية على صعيد مصر، كان لها عظيم الأثر في تكوين فكر القائد "يعقوب"، حيث وفرت فرصة اختلاط القادة- مثلما ذكرنا آنفاً- يعقوب ورفاقه من جهة، وديزيه وضباطه من جهة أخرى، وها هوذا القائد العام للجيش الفرنسي بنفسه يسمح بفتح باب التجنيد الاختياري- ولأول مرة في التاريخ منذ الفتح العربي لمصر- لجنود أقباط "مصريين"[٩٣].

تطوع الشباب القبطي:

أقبل الشباب القبطي على التطوع بالجيش القبطي، على الرغم من أن الأقباط كانوا لا يرحبون بفكرة التحاقهم للقتال- كما سنرى رد فعل أهليهم- في حروب دارت رحاها بين أطراف متعددة (مماليك، عثمانيين، فرنسيين،

---

92 أنور لوقا- المرجع السابق.

93 "تؤكد الوثائق الفرنسية على رغبة القائد العام للجيش الفرنسي في تجنيد العديد من المصريين في الجيش الفرنسي، وإن كانت غالبيتهم من الأقباط".

إنجليز، مسلمين، غير مسلمين،...)، ومثلوا عينة من خيرة شباب مصر الأمناء على أرضها، وخيراتها، تمثل كل فئات الشعب القبطي آنذاك.

فئات الجيش القبطي "المجندون":

كان الجيش القبطي يحوي بين فئاته "المجندين" ممَن هُم مِن العلماء الذين غزو المجمع العلمي لحملة بونابارت (مثل يعقوب بقطر، واسمه إليوس بقطر- صاحب القاموس (فرنسي /عربي) الذي يحمل اسمه)، كما كان بينهم الحرفيين والصناع، ، كما كان بينهم من الفلاحين. وكان بينهم من رجال الإكليروس العلماء (مثل القس يوحنا الشفتشي- معلم شامبليون الذي فك رموز حجر رشيد)، كما كان بينهم العالماني (مثل الكولونيل مكاريوس حنين، والكولونيل حنا هرقل المنفلوطي).

وأيضاً كان بينهم القاهري(مثل: ميخائيل المصري، وجرجس المصري، وتادرس القبطي، ويوسف واصف، وفرج تالوت ..وغيرهم)، والسكندري (كبولس بركة)، كما كان بينهم الصعيدي (كيعقوب حنا الملواني، ويوسف نخاخلي الفرشوطي، ويوسف ميخائيل الأسيوطي،..وغيرهم). وكان بعضهم من المتزوجين، والبعض الآخر من غير المتزوجين.

غير أن الأهالي أنفسهم، وبعض القيادات الشعبية (مثل المعلم "عبد الله"- الذي كلفه القائد يعقوب- للإشراف على إقامة المتاريس) كانوا يتطوعون لمساندة ومساعدة هذا الجيش للتخلص من نير العثمانيين والمماليك.

وقد اعترف إمبراطور فرنسا "نابليون بونابرت" ببسالة هؤلاء القادة ومنحهم وسام "جوقة الشرف"[٩٤].

معايير اختيار الجنود

من الواضح أن هناك معايير خاصة باختيار وانتقاء الجنود لقبولهم في الجندية التابعة للجيش الفرنسي:

١- من حيث معرفة بعض مفردات الفرنسية التي تساعدهم على تلقي الأوامر الخاصة بالتدريبات العسكرية، واستيعاب الخطط الحربية المعدة للحرب.

---

[94] "وكان يعقوب- الذي حاز رتبة "جنرال" في مارس ١٨٠١م- يفخر بتغلب ضباطه وجنوده، ومعظمهم من أبناء الفلاحين، على جميع الصعاب التي اعترضت طريق تعليمهم"، أنظر أنور لوقا، المرجع السابق.

٢- من حيث بنيانهم البدني واللياقة البدنية، وكذا القدرة على القتال، ولابد أن هذا كان يستلزم الكشف الطبي العام قبل القبول في الجندية، وكذا القدرة الذهنية على الاستيعاب.
٣- من حيث المهارات الخاصة بالقدرة على امتطاء الجياد والعناية بها، وسرعة البديهة والتصرف في المواقف، ..الخ.

وفي رسالته إلى قائد جرجا كتب "بليار" يوصيه أن يضمِّن في تقاريره: " قائمة بأسماء كل الرجال المنضمين لهذه الكتيبة (القبطية)، بحيث تشمل العدد الكامل لهؤلاء الرجال مع العناية بوضع ملاحظاتك حول **سنهم**، **حالتهم**، **ومقدرتهم**"[٩٥].

كم بلغ عدد رجال الفيلق القبطي؟

يذكر المؤرخ يعقوب نخلة روفيلة في كتابه[٩٦]: "ولما دخل الفرنسيس مصر تدخل فيهم، وعرف من لغتهم ما قدر عليه. فلما حصلت هذه الثورة عمل اتفاقاً مع قائد العساكر الفرنساوية على تأليف جيش من الأقباط وجمع من الصعيد نحو **الألفين من الشبان الأقوياء** القادرين على حمل السلاح.."، ويذكر صبحي وحيد في كتابه "أصول المسألة المصرية" "وبعد أن فكر (يعقوب) في أن يستفيد من الفرنسيين في تكوين جيش وطني، فجمع يعقوب **ألفين من شباب الأقباط** من الذين كانوا يعملون مع الفرنسيين كصناع وعمال في الصعيد ويفهمون بعض الفرنسية ووضعهم تحت التدريب العسكري الفرنسي المتحضر كما قام الجنرال كليبر بانتقاء ضباط لتدريبهم"[٩٧]، ويحدد الدكتور أنور لوقا العدد- موثقاً- في مقاله الشهير فيقول: "تختلف تقديرات المعاصرين: فالجبرتي يتخيل **"نحو الألفين"**، ونقولا الترك يذكر **٨٠٠ من الجنود والضباط**، ولعل أكبر عدد بلغه الفيلق بالتحديد هو **٨٩٦ جندياً وضابطاً**، حسب إحصاء وجدناه في المحفوظات الفرنسية، تاريخه ٢٣ سبتمبر ١٨٠٠م".

أهالي الجنود يلتمسون تسريح أبناءهم

---

95 نبيل السيد الطوخي- المرجع نفسه، بمحفظة فترتها التاريخية من ٣١أغسطس إلى ١٤ سبتمبر سنة١٨٠٠م.

96 يعقوب نخلة روفيلة- "تاريخ الأمة القبطية"، الطبعة الثانية، ص ٢٨٩.

97 صبحى وحيد، "أصول المسألة المصرية"، ص ١٢٩- ١٣١

ولعل الفارق في تقدير أعداد أفراد الجيش يرجع إلى أن البعض- وتحت التأثير العاطفي للأهل ووساطة الأب البطريرك- ترك الجندية وعاد إلى مهنته التي كان قد تركها قبل تطوعه، فيذكر المؤرخون أنه "لم تكن العلاقة

بين الجنرال يعقوب- القبطي قلباً وقالباً- وبين البطريرك القبطي (الأنبا مرقس الثامن الـ ١٠٨) على ما يرام، ولا نعرف ما هو الخلاف الذي كان بينهما، إلا أن نقطة الخلاف الكبيرة التي ذكرها المؤرخون هي أنه عندما كون الجنرال يعقوب فيلقه القبطي اختار ٢٠٠٠ شاب من الصعيد وهذا الأمر لم يتعود عليه الأقباط (مهنة الحرب والقتال)، فحضر آباؤهم من الصعيد واشتكوا للبابا القبطي أن يتوسط للجنرال يعقوب أن يرجع هؤلاء الأقباط إلى أهاليهم، فرد عليه أن من أراد البقاء فليبقى معه ومن أراد الرجوع فليرجع"[٩٨].

"ويذكر بعض المؤرخين أنه رجع معظمهم من تلقاء أنفسهم ولم يتبق معه غير ٧٠٠ - ٨٠٠ قبطياً فقط ولكن من الظاهر لم يرضي هذا الرد الأب البطريرك، مما كان له أثراً في توتر العلاقة بينهما"[٩٩].

---

[98] عزت أندراوس، المرجع السابق.

[99] أنور لوقا، المرجع السابق.

المدرسة العسكرية "المصرية / الفرنسية"
"تشكيلات الفيلق القبطي"

مبادئ المدرسة العسكرية:

الشرف والامتياز

كانت المدارس الحربية التي أنشئت في الصعيد لتعليم المجندين المنضمين للفيلق القبطي "المصري"، الفنون الحربية على أيدي الضباط الفرنسيين، تلتزم بمبادئ تعلمها الفرنسيون في مدارسهم، وهي المبادئ التي عُرفت باسم "مبادئ الشرف".

ومن المعروف أن هذه المدارس كان يشرف عليها ضباط "ديزيه"- صديق يعقوب- الذي تعلم هو نفسه (ديزيه) تلك المبادئ في مدرسة "إفيا" الحربية، منذ طفولته (في الثامنة من عمره) حيث كان يدرس بها على منحة دراسية[100]. "وكانت المدرسة التي تديرها "جماعة الخطابة" قد أدخل عليها بعض إصلاحات على يد وزير الحربية الكونت دوسان جرمان، التي كان منها:

"يجب ألا توجه للتلاميذ إطلاقاً ألفاظاً نابية، وأن يحرم ضربهم.. فالرجال الذين ينبغي أن يهتدوا في حياتهم كلها بالشرف، يجب أن يربوا بمبادئ الشرف. إذن فأمثل ضروب العقاب إيقاظ إحساسهم بالخزي. وحرمانهم من الأشياء المحببة إليهم.... ولكن حتى هذه الوسائل التي يقصد بها إذلالهم يجب عدم الالتجاء إليهم إلا بمقدار، لئلا يعتاد الأطفال الذل. ويجب أن يقوم الثواب على هذه المبادئ ذاتها... على الشرف والامتياز، لكي يصبح هذان ضرورة لا غنى عنها لنفوسهم".

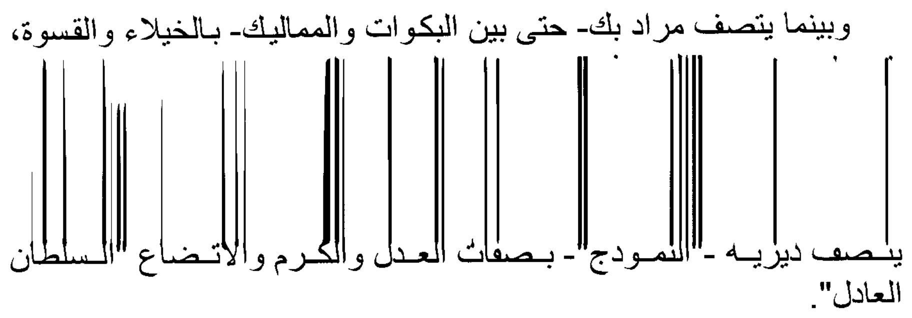
ويعلق كريستوفر هيرالد عن هذه المبادئ بقوله: "ولعل هذه المبادئ المثالية لم تضيع تماماً على التلميذ (ديزيه) الذي اشتهر فيما بعد بـ"السلطان العادل".

---

[100] ج كريستوفر هيرولد، "بونابارت في مصر"، ص٣٠٩

العدل والكرم والاتضاع

وبينما يتصف مراد بك- حتى بين البكوات والمماليك- بالخيلاء والقسوة،



يتصف ديزيه -النموذج- بصفات العدل والكرم والاتضاع "السلطان العادل".

أما من حيث العلم بالحركات الحربية فقد كانت معلومات مراد العسكرية مقتصرة على مبدأين: "**اهجم**، فإذا كان الهروب ضرورة **فاهرب**". "أما ديزيه- الذي درس التاريخ، فكان ملماً كل الإلمام بجميع نواحي العلوم العسكرية"[١٠١].

غير أن مراد بك تلقى درساً بعد هزيمته في شبراخيت (امبابة) والأهرام، "لذلك أخذ بخطة تجنب الالتحام بالعدو في معارك حامية، واستدراجه ليوغل بعيداً عن قواعد تموينه، معتمداً على تدميره تدميراً بطيئاً بعملية التفتيت والتآكل. ولعل هذه الخطة كانت تفلح مع أي عدو، تقريباً إلا ديزيه"[١٠٢].

النظام والالتزام، والعمل الجماعي

كان يعقوب- على أثر معاشر ضباط الجيش الفرنسي "يلمس الفرق بين ما اعتاده من أبهة سليمان بك- مملوكه الذي كان يخدمه- وأنانيته واستبداده بأتباعه وبين تساوي الفرنسيين في الخضوع لنظام عام يشملهم، وحرصهم على جدولة ساعات اليوم، وأسلوبهم الجماعي في التشاور لحل المشكلات ووضع الخطط واستخلاص القرار المناسب".

الديمقراطية

"يقول الجنرال بليار- زميل ديزيه- في مذكراته عن تلك الفترة: "كنا نجتمع عند الجنرال ديزيه فيعرض كل منا مقترحاته وخططه ويشرح وجهة نظره وآراءه"[١٠٣].

وقد تجلت قيمة الديمقراطية في قصة يرويها هيرالد نقلاً عن رسالة من ديزيه وبونابارت يقول: "في معركة "سدمنت" التي لاحق فيها ديزيه مراد في ٧ أكتوبر في دير سدمنت- وهو أحد الأديرة القبطية على مقربة من

---

101 ج كريستوفر هيرولد، المرجع السابق، ص٣١٧

102 ج كريستوفر هيرولد، المرجع السابق، ص٣١٩

103 أنور لوقا، المرجع المذكور، المجلد الأول، الملحق الأول، ص٢٤٦.

اللاهـون. قـدر ديزيـه قـوة مـراد بنحـو ٤٠٠٠- ٥٠٠٠ فـارس مـن البـدو والمماليك، وبعد أن شكّل الفرنسيون مربعهم المعهود وعلى جوانبه فصائل من رماة البنادق، ألقى فرسان مراد أنفسهم عليهم بسرعتهم وثقلهم المألوفين.
كتب ديزيه إلى بونابرت يصف المعركة فقال: "وراقبهم جنودنا البواسل- وهم يقتربون- بغاية الهدوء. وصحت برماة الكتيبة الحادية والستين "هيا، أطلقوا النار !"، فأجابوا **"لن نفعل أيها الجنرال قبل أن يصبحوا على عشرين خطوة منا.."**[١٠٤].

وقد يظن البعض- في تاريخنا المعاصر- أن في هذا عصيان للأوامر العسكرية الصارمة، ولكنها الديمقراطية في تقدير الموقف بالمشاركة.

"عمليات التجنيد والتدريب"

بدأت عمليات تدريب جنود وضباط الجيش القبطي في جميع أنحاء البلاد، ولاسيما صعيد مصر، في نهاية وكانت عملية التدريب تتم في تشكيلات يحوي كل منها ١٥٠ جندي، وفي ساحات مفتوحة (تصلح للتدريب على مهارات القتال)، وأحياناً في الخلاء الزراعي (حيث يمكن استراحة الجنود)، وأخذ التعليمات النظرية (كالمبادئ العسكرية، وسلوكيات الجندي النبيل، وبعض الخطط النظرية، والتكتيكات الحربية)، وكان يقوم بانتقائهم وتدريبهم ضباط متخصصون مهرة، يتعهدون جميع احتياجات الجنود (مرتبات، جراية، مبيت، مخيمات، عهدة، ...الخ)، وكان التدريب يتم وفق جدول زمني مركز- لما كانت تقتضيه الضرورة- وترسل التقارير- أول بأول- للقائد العام للحملة (ساري عسكر)، وبها بيانات مستوفاة عن كل أحوالهم، حتى صدور الأوامر بترحيلهم، على أن يُنتخب منهم النوابغ (كالذين سبق لهم واشتركوا في عمليات عسكرية)، والذين كانت تظهر مهاراتهم أثناء التدريب، ليرشحو لقيادة الفصائل العسكرية (ضباط).

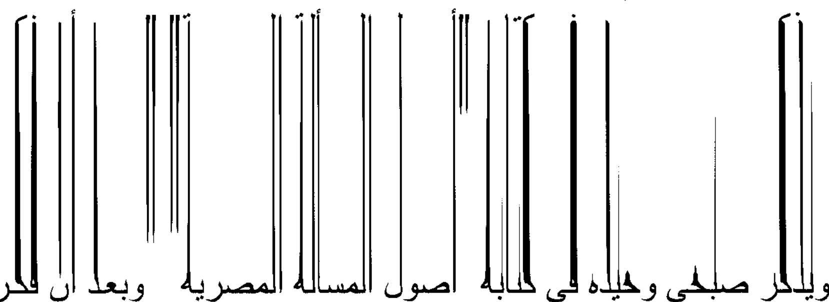
التدريب على أيدي محترفي الحملة:

كان يعقوب فارساً مدرباً على أعلى مستوى من التدريب العسكري، وتاريخه القتالي، ودفاعه عن نفسه، وعن مخدوميه، وعن بني قومه من

---

[104] ج هيرالد- المرجع السابق، ص ٣٢١

القبط، تؤكد هذه الكفاءة الحربية، غير أنه كان قد استعان بالمدربين من الفرنسيين الذين انتقاهم القائد كليبر.



ويذكر صبحي وحيده في كتابه أصول المسألة المصرية وبعد أن فكر يعقوب في أن يستفيد من الفرنسيين في تكوين جيش وطني ..جمع نحو ألفين من شباب الأقباط .. ووضعهم تحت التدريب العسكري الفرنسي المتحضر كما قام الجنرال كليبر بانتقاء ضباط لتدريبهم"[١٠٥].

مرتبات للجنود

وفي رسالة من "دونزلو- قائد أسيوط- إلى القائد العام "منو" قال فيها: "أقوم بتجنيد مصرين كل يوم، ولقد وصل عددهم ٩٨ رجلاً، وهم يذهبون إلى المدرسة a Lécole`، مرتين في اليوم، وأنا مسرور منهم، وقد حلقوا ذقونهم، وارتدوا ملابس الجيش الفرنسي وحتى وصول أوامر أخرى منك، سأواصل عمليات التجنيد في منطقتي، أغلب الجنود من الأقباط وأنا أحتاج أموالاً لصرف مرتباتهم وهي بسيطة لتكفي احتياجاتهم، أرجو أن تقوم بإرسالها لي"[١٠٦]

جنود أقباط ومسلمون:

فرد عليه القائد العام "منو" قائلاً: "سوف تقدم لي خدمة كبيرة وللجمهورية (الفرنسية) إذا أمكنك أن تجند مسلمين وأقباط، فأنا أوافق على تجنيدهم في الجيش الفرنسي على أن يقوموا بحلق ذقونهم، إذا أمكن حاول أن يكون عددهم ١٥٠ في كل فرقة لأن هذا مفيد جداً"[١٠٧].

قيادة الجيش:

وكان هؤلاء الجنود يتزيون زياً خاصاً، ودربهم ضباط فرنسيون على أساليب الدفاع والقتال الحديثة تحت إشراف المعلم يعقوب الذي قلده كليبر قيادة الفيلق ملقباً إياه بلقب أغا.

---

[105] صبحى وحيد - المرجع السابق، ص ١٢٩ – ١٣١.

[106] نبيل السيد الطوخي- المرجع السابق ، ص٣٣٥، عن ملف رقم ٣، B6 47، بدوسيه رقم ٢بمحفظة فترتها التاريخية من ١يونيو إلى ٩يوليو سنة١٨٠٠م.

[107] نبيل السيد الطوخي: المرجع السابق، بمحفظة فترتها التاريخية من ١٠يوليو إلى ١٩أغسطس سنة١٨٠٠م.

وظل يعقوب يقود الفيلق القبطي "بعد أن منحه الفرنسيين لقب جنرال ووهبوه سيفاً ومنحوا ابن أخيه لقب كولونيل. وهذه الرتب لم يصل إليها قبطي في جيش مصر منذ احتلال العرب المسلمين مصر وحتى الآن"[108].

وكان يعقوب- الذي حاز رتبة "جنرال" في مارس ١٨٠١م- يفخر بتغلب ضباطه وجنوده، ومعظمهم من أبناء الفلاحين، على جميع الصعاب التي اعترضت طريق تعليمهم.

ترحيل الجند، "التقارير العسكرية":

وفي رسالته إلى قائد جرجا كتب "بليار يقول له: "قائد الكتيبة القبطية La Légion copte" ذاهب إلى جرجا للحصول على قائمة بأسماء كل الرجال المنضمين لهذه الكتيبة، أرجوك اعمل على عدم مضايقته في مهمته، واعمل على الاتفاق معه بخصوص هذه القائمة بحيث تشمل العدد الكامل لهؤلاء الرجال مع العناية بوضع ملاحظاتك حول سنهم، حالتهم، ومقدرتهم"[109].

الزي العسكري لجنود الفيلق القبطي

ويقول الجبرتي المؤرخ المسلم عن قصة إنشاء الجنرال يعقوب للفيلق القبطي: " أن يعقوب القبطي لما تظاهر مع الفرنسيين، جعلوه ساري عسكر القبطة ... فجمع شبان الأقباط وحلق لحاهم، **وألبسهم زياً يشابه عسكر الفرنسيين، ولكنه ميزهم عنهم بقبعة يلبسونها على رؤوسهم، مشابهة لشكل البرنيطة، وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم** ... غاية في البشاعة! وصيرهم عسكره وعزوته، وجمعهم من أقصى الصعيد"[110].

يذكر المؤرخ يعقوب نخلة روفيلة في كتابه أن يعقوب لما اتفق مع بعض الضباط الفرنسيين على تأليف جيش من الأقباط وجمع من الصعيد نحو

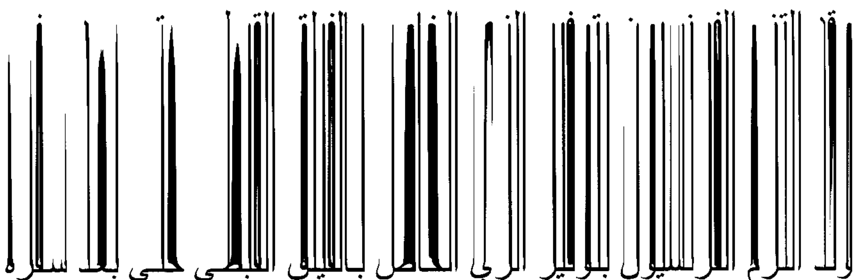
---

108 عزت أندراوس، الموقع الإلكتروني المذكور.

109 نبيل السيد الطوخي: المرجع نفسه، بمحفظة فترتها التاريخية من ٣١أغسطس إلى ١٤ سبتمبر سنة١٨٠٠م.

110 الجبرتي: "المختار من تاريخ الجبرتي" - اختيار محمد قنديل البقلي - كتاب الشعب - الجزء الثالث قال الجبرتي في يومياته ص ٤٣٦ وتحت تاريخ يوم هو ٢٠ المحرم الموافق ٢ يونيه ١٨٠١م.

الألفين من الشبان الأقوياء[١١١]: " فقبلوهم منه **وزيوهم بزيهم**، وأعطوهم ما يلزم من البنادق والسلاح، وكذلك هو تعلم الحركات العسكرية"



لفرنسا حيث " رصدوا لهؤلاء الفرسان نفقات الجياد **والزى الشرقي بالسراويل والصدريات المزركشة والعمائم الخضراء.**."[١١٢].

تسليح الجيش، وإعداد التحصينات والمتاريس

كانت إحدى وسائل الدفاع في تلك الآونة "الحصون والمتاريس، والقلاع"، فقد كان الأهالي- من المسلمين الموالين للمماليك والعثمانيين شركاء الدين- يحتمون بها[١١٣]، كذلك استخدمها جنود الحملة الفرنسية[١١٤] للتحصن ضد هجمات المماليك والعثمانيين.

أما القبط فكان لهم باع في هذه الصناعة، حيث كان منهم البنائين والنجارين والحدادين وغيرهم، حتى أنه كان هناك من المعلمين القبط من هو متخصصاً في تلك المباني (الحصون)، فعندما غزا مصر الجيش العثماني والجيش الإنجليزي- بعد خيانتهما للمعاهدة مع الفرنسيين- يذكر الجبرتي المؤرخ المسلم[١١٥] عن تهور رجل من رجال الجنرال يعقوب فيقول"أمر الجنرال يعقوب رجلاً اسمه عبد الله بالإشراف على الناس لإقامة المتاريس فتعدى على بعض الأعيان الأغنياء وأنزلهم من على دوابهم وعسف بهم

---

111 يعقوب نخلة روفيلة "تاريخ الأمة القبطية"-الطبعة الثانية- ص٢٨٩

112 أنور لوقا، المرجع المذكور.

113 يذكر الجبرتي في يومياته أنه في "يوم الاثنين ٢ شهر صفر سنة ١٢١٣ هـ - ١٦ يوليه ١٧٩٨ م حضر مراد بك إلى بر انبابة (امبابة) وشرع في عمل متاريس هناك ممتدة إلى بشتيل، وتولى ذلك بنفسه هو وعلي باشا الطرابلسي ونصوح باشا وأحضروا المراكب الكبار والغلايين التي أنشأها بالجيزة وأوقفها على ساحل انبابة وشحنها بالعساكر والمدافع فصار البر الغربي والشرقي مملوئين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة

114 يذكر الجبرتي أن الفرنسيين كانوا قد "أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول إلى المدينة ليسكنوا بها فنزلوا وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة وشرعوا في بناء حيطان وكرانك وأسوار وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة وبنوا على بدنات باب العزب بالرميلة وغيروا معالمها وأبدلوا محاسنها ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء وما كان في الأبواب العظام من الأسلحة والدرق والبلط والحوادث والحرب الهندية وأكر الفداوية وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحاسن الملوك والسلاطين ذوات الأركان الشاهقة والأعمدة الباسقة

115 الجبرتي- "المختار من تاريخ الجبرتي"- إختيار محمد قنديل البقلي- كتاب الشعب- الجزء الثالث، في يومياته ص ٤٣٦ وتحت تاريخ يوم ٢٠ المحرم الموافق ٢ يونية ١٨٠١م.

وضرب بعض منهم حتى أن واحداً سال الدم من وجهه، فذهب واشتكى لآخرين فتجمعوا ورفعوا شكواهم جميعاً إلى بليار قائم مقام الفرنسيين فقبض على ذلك القبطي وحبسه بالقلعة، ثم أمر الفرنسيين أن تقوم كل حارة بإعطاء أجر عاملين تدفع لهما أجرة من شيخ الحارة الذي يقوم بدوره بجمع أجرهما من أهل الحارة "وهذه المتاريس أعدت للدفاع عن الأقباط وحمايتهم إذا حدث وأن هاجمهم المسلمين كما حدث في المرتين التي تمرد فيها المسلمين وهوجتهم ضد الفرنسيين".

قلعة يعقوب

وبتعبير الجبرتي: "..هدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التي هو ساكن فيها خلف الجامع الأحمر، وبني له قلعة وسورها بسور عظيم[١١٦]، وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام . وكذلك بني أبراجا في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية، وفي جميع السور المحيط والأبراج طيقاناً للمدافع. وعلى باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلاً ونهاراً وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية".

ويذكر صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية عن هذه القلعة فيقول: "وبني قلعة في أيام الأسبق بجهة الجامع الأحمر بالأزبكية، وسماها قلعة يعقوب. وقد شاهدنا آثارها قبل هدمها في أيام المرحوم إسماعيل باشا خديوي مصر الأسبق"[١١٧]

أنفاق لهروب القبط:

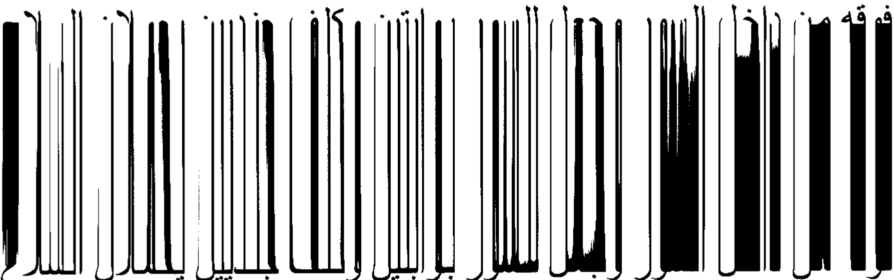
وقد قام أيضاً القبط بحفر الأنفاق للهروب- إذا اقتضت الضرورة- فيذكر التاريخ: "وكان كل غرض الجنرال يعقوب هو الدفاع عن إخوانه الأقباط ضد المهاجمين من المسلمين فعندما شعر بقرب تنفيذ خطة المسلمين هدم بعض البيوت التي خربها المسلمين في الحوادث الأخيرة وبني على أنقاضها سوراً

---

[116] يذكر التاريخ أن يعقوب كان يبني قلعته بأسوار شبيهة بأسوار القاهرة التي رممها الفرنسيون فيقول: ""وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى، التي هو ساكن بها ، خلف الجامع الأحمر، وبني له قلعة- -- --- وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام (جمع بدن وتعني هيكل أو شكل)، وكذلك بني أبراجاً في جهة الحارة ببركة الأزبكية، وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقانا (جمع طاقة) للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذي رممه الفرنسيين، وجعل على باب القلعة، يفتش الخارج والداخل عديد من العساكر الأقباط الملازمين للوقوف ليلاً ونهاراً، وبأيديهم البنادق على الطريقة الفرنسية".

[117] يعقوب نخلة روفيلة- تاريخ الأمة القبطية، ص ٢٨٩

عاليا ضخما حول الحي القبطي به فتحات لإطلاق نيران البنادق على المسلمين الذين يقتربون من الحي القبطي للاعتداء على الأقباط، وشيد أبراجاً



على أكتافهما لحراسة البوابة لمنع كل من يحاول الدخول وحفر أنفاقاً لهروب الأقباط إذا حدث واحتل المسلمين هذا الحي وأصبح المكان حصنا ، وتمكن الجنرال يعقوب من أن ينقذ الأقباط من مذبحة دموية كانت ستحدث بالدفاع عنهم ضد من يريد أن يقتحم حيهم الآمن".

بعض قيادات وجنود الفيلق القبطي

الجنرال يعقوب حنا "قائد الفيلق"، وصاحب مشروع استقلال مصر

ولد المعلم يعقوب القبطي[١١٨] في سنة ١٧٤٥م، في ملوي، ودخل خدمة سليمان باشا كبير الانكشارية، فجمع ثروة عظيمة. وقد حارب إلى جانب مولاه. وكثيراً ما دخل في المنازعات والحروب بين حزب مراد بك وجيش قبطان باشا سنة ١٦٨٦م.

ولهذه الصفات الحربية والإدارية دخل يعقوب في خدمة الفرنسيين بعد نزول بونابرت إلى مصر. فالتحق بجيش الجنرال "ديزيه" وأبدى من ضروب البسالة ما جعل الجنرال يقلده يقلده سيف الشرف، ثم دعاه "كليبر" لتنظيم مالية البلاد.

ثم تسلم قيادة الفرقة القبطية بوظيفة رئيس، ثم صار مستشاراً لمدير الإيرادات العامة. وأخيراً منحه الجنرال مينو رتبة جنرال مساعد لـ"بليار" في مارس سنة ١٨٠١ للدفاع عن القاهرة ضد الجيوش الانجليزية التركية فأصابه ما أصاب جيش بليار، وسلم مع الفرقة القبطية عند تسليم المدينة في يونية سنة ١٨٠١م وغادر القاهرة مع الفرنسيين إلى فرنسا.

والمعلم يعقوب هو الذي وضع مشروع استقلال مصر. وقد وُجدت منه نسخة في محفوظات وزارة الخارجية البريطانية تحت رقم: ٧٨ مجلد ٣٨. وهو أول مصرى من رعايا الدولة العثمانية يخطط "لاستقلال مصر عن

---

118 جورج يانج- المستر، تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، تعريب علي أحمد شكري، صفحات من تاريخ مصر (٥)- مكتبة مدبولي- الطبعة الثانية ١٩٩٦م – حاشية بصفحة ٥٦، ٥٧.

الدولة العلية وعن حكم المماليك، إذ أرادها بلاداً حرة خالصة لأهلها ولكن المنية لم تمهله حتى ينال موافقة الدول على هذا الإستقلال"[١١٩] .

الكولونيل غبريال سيداروس "وكيل الفيلق القبطي"

كان غبريال يشتغل في دائرة إبراهيم بك وقت دخول الفرنسيين مصر، ثم عُين لإدارة أعمال محمد بك الألفي لمدة سنتين، ثم اشتغل دليلاً للحملة الفرنسية ومترجماً للجنرال كليبر في نفس الوقت، ثم أصبح وكيلاً في فرقة الجنرال ديزيه الذي أصبح حاكماً عسكريا للحملة الفرنسية في الصعيد.

أما عن مهاراته العسكرية فقد اشترك مع عمه (الجنرال يعقوب) في موقعة جرجا التي أنهزم فيها المماليك والبدو الذين ساعدوا المماليك في الحرب، وانهزم فيها المماليك شر هزيمة، وكذلك حارب في معركة أسوان وعين بعدها وكيلاً للفيلق القبطي .

الكولونيل إليوس بقطر "مترجم الحملة"

يعقوب بقطر واسمه إليوس بقطر. "كان إليوس ممن صنعوا نهضة الاستشراق اللغوي في أوربا، وهو فتى مغمور من أبناء أسيوط"[١٢٠]، ولد بها سنة ١٧٨٤م، والبعض يقول أنه ابن أخي يعقوب، عمل كاتباً عند يعقوب، قبيل الحملة الفرنسية، ثم عينه نابليون- قائد الحملة- مترجماً لجيشه، وساعد علماء الحملة الفرنسية في وضع المرجع الكبير كتاب "وصف مصر".

وهو أحد جنود يعقوب الذين واصلوا الرحلة إلى فرنسا- بعد وفاة يعقوب- ويجدر الإشارة إلى أنه أول من درس من الأقباط اللغة الفرنسية وتفوق فيها وأتقنها، ونال مركزا علمياً سامياً بفرنسا وعين مدرساً بمدرسة اللغات الشرقية بباريس.

"ويحمل اسمه- إليوس بقطر- قاموس (فرنسي /عربي) وضعه فأصبح عمدة الدارسين، وبداية نقل ألفاظ الحضارة العصرية، وتوفي سنة ١٨٢١م، في الثامنة والثلاثين من عمره، عقب تعيينه أستاذاً للعربية العامية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس. وطُبع قاموسه- المشار إليه- في سنة ١٨٢٨ م"[١٢١] .

---

119 زاهر رياض- "المسيحيون والقومية المصرية"- ص ٥٠، راجع أيضاً: رياض سوريال- "المجتمع القبطي فى مصر فى القرن ١٩"، ص ٤٣ ، وأيضاً أنطونيوس الأنطونى، الراهب القمص -"وطنية الكنيسة

120 أنور لوقا، الدكتور، "موسوعة من تراث القبط"، المجلد الأول، الملحق الأول ص ٢٤٦.

121 كامل صالح نخلة وفريد كامل نخلة - "خلاصة تاريخ المسيحية في مصر "

العقيد القس يوحنا[122] الشفتشي[123]- معلم شامبليون[124]- "قائد فصيلة"

هذا رجل نجهل مولده ووفاته ، وترددت الوثائق في طريقة كتابة اسمه، فلم يدخل التاريخ الذي أدى مع ذلك في مجراه الحديث دوراً حضارياً خصباً.
وقد ذكر اسمه في المراسلات العديدة المتبادلة بين المشتغلين بنشر كتاب "وصف مصر" الموسوعي، والتي يضمها قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية بباريس في ثمانية وخمسين مجلداً. وذكر اسمه ضمن أربعة مستشرقين أعضاء في لجنة التأليف، يعملون بدون مرتب باستثنائه، فقد كان يتقاضى مرتبا زهيداً.
وتشهد وثائق "اللاجئين من مصر"[125] ضمن محفوظات وزارة الحربية- على التوالي- بأنه اشتغل مترجماً فورياً بمنطقة الجيزة ومحصلاً للمناقصات وكاتباً أول في محكمة الشئون التجارية، ومترجماً للجنرال "ديستان" ثم

---

122 أنور لوقا، الدكتور، "موسوعة من تراث القبط"، المجلد الأول، الملحق الثالث ص٢٨٣.

123 لقب "الشفتشي" كلمة من المصطلحات الفنية التي يستخدمها صائغ الذهب للدلالة على خيوطه الدقيقة المنقوشة في حيز مفرغ من اللبة ولا يراها الناظر إلا في شفافية الضوء. كلمة يمتزج فيها فعل "شف / يشف" بالسؤال العامي "شفت شيء؟" (أي هل رأيت شيئاً؟). لذا نرجح انتساب هذا الكاهن إلى أسرة من الصياغ. وصياغة الذهب حرفة متوارثة بين الأقباط منذ أقدم العصور.

124 لقد اعتمد شامبليون في بحثه عن مصر اعتماداً منهجياً على اللغة القبطية، وبمنهجه هذا تفوق على علماء عصره. وإذا كانت أولوية الصوتيات هي التي أوصلته إلى الهدف، فهو يعترف بفضل الكاهن يوحنا الشفتشي في تلقينه النطق القبطي السديد، دراساته اللغوية المتخصصة التي أفضت به- في فرنسا- إلى فك رموز اللغة المصرية القديمة بعد أن استعصت قراءتها على الناس طوال ألف وخمسمائة سنة. وهكذا صعد في سماء التاريخ شامبليون، واحتجب اسم معلمه "يوحنا الشفتشي". يذكر الدكتور أنور لوقا مدى فرحة وزهو شامبليون بتلمذته للقس يوحنا فيقول: "فقد استوقفتنا تسمية مختلطة غامضة في سياق رسالة نابضة- - بالتحفز كتبها في سنة ١٨٠٩م من باريس الفتى شامبليون. وهو في السابعة عشرة من عمره . إلى شقيقه الأكبر ينبئه فيها بخطوات حاسمة يخطوها في سبيل كشف أسرار الهيروغليفية ، هذا الكشف الذي سيحققه في سنة ١٨٢٢م ، ولكنه يشاطر منذ ذلك الحين أخاه نشوة استشفاف الهدف فيقول له:
"لغتي القبطية تتقدم وأجد فيها حقاً ما يبهجني أعظم الابتهاج ، ولك أن تتمثل سعادتي وأنا أتكلم لغة أعزائي أمينوفيس وسيتي ورمسيس وتحتمس! . . وسأذهب لأقابل في كنيسة "سان روك Saint Roc" بشارع "سان أونوريه" كاهناً قبطياً يتلو فيها القداس ويدعي "إيكاها شبتشي Icaha Schcptichi" و سيعطيني هذا الأخير معلومات عن الأسماء القبطية ومن نطق الحروف . . إنني أسلس قيادي تماماً للقبطية. وأريد أن أعرف هذه اللغة المصرية كما أعرف لغتي الفرنسية ، فعلى هذه اللغة أرسى أساس عملي الكبير في أوراق البردي".

125 أنور لوقا (الدكتور)- المرجع السابق- المجلد الأول- الملحق الأول، ص ٢٤٦.

للمواطن "دالونفيل" مدير رسوم طوائف الصناع، كما عمل- بناء على توصية العالم الرياضي "فورييه"- مترجماً لدى اللجنة التي شكلها القائد كليبر لجمع مواد تاريخ الحملة الفرنسية.

وتضيف شهادة بتوقيع الجنرال "داماس" رئيس هيئة أركان حرب أن المذكور كان رئيس فصيلة أي برتبة عقيد في الفيلق القبطي، وبجسمه ندبة جرح خطير أصابه.

وكان هذا الكاهن مقيماً بشارع "سان روك" بباريس عندما قصده الطالب شامبليون ليأخذ دروساً خصوصية في نطق اللغة القبطية . وظل راعياً في كنيسة "سان روك" للأقباط المهاجرين الذين حطوا بباريس ، حتى قرر في سنة ١٨٢٥م أن يرحل إلى مرسيليا التماساً لمناخ أدفأ وأنسب لحالته الصحية.

وهناك عاش بين أهل الجالية المصرية التي خرجت مع المعلم يعقوب وبعده واستقر معظمها في مرسيليا منذ ١٨٠١م . ولا ندري متى وأين وافته المنية .

ويقول مستر جورج يانج في مؤلفه عن العلامة القس يوحنا الشفتشي "لا نعلم متى مات- ومتى ولد- وهو الذي جمع بين تعمق اللغات القديمة فكان العضو الشرقي الوحيد في لجنة تأليف موسوعة "وصف مصر"، وتحمل المسئولية العسكرية ضابطاً في الفيلق القبطي، ونسي التاريخ وجوده- مع أن شامبليون نقل عنه صوتيات اللغة القبطية- فكأن باعث الحضارة الفرعونية تسلم منه المفتاح الذي به فك رموز الهيروغليفية"[١٢٦] .

الجيش القبطي في أوربا

لماذا سافر الفيلق القبطي إلى أوربا؟!!

هناك اقوال كثيرة عن سبب ترك الجنرال يعقوب مصر هو وغالبية جيشه فقال القس منسى يوحنا: "لم يكن فى إمكان الجنرال يعقوب البقاء فى مصر بعد خروج الفرنسيين منها، فخرج مع الجيش الفرنسى هو واكثر رجال فرقته خوفاً من إضطهاد المسلمين لهم لأن الفرنسيين كانوا قد ولوا منهم أفراداً فى مناصب قيادية عالية ، ومنهم المعلم ابو طاقية الذى كان

126 أنور لوقا (الدكتور)- المرجع السابق- المجلد الأول- الملحق الأول، ص ٢٤٦.

يفصل بين المسلمين فى الأحكام الشرعية ولم يعد إلى مصر بعد خروجه منها بل مكث فى فرنسا حتى مات هناك بعد هجرته إليها ببضع سنوات"[127].

يعقوب يرفض عودة السيادة العثمانية[128]

رفض يعقوب عودة السيادة العثمانية وحكم المماليك، وهو أدرى بذلك المزيج من التعسف والتناحر والنهب. وحزم أمره على مغادرة مصر مع انسحاب الفرنسيين. لم يتخير الهجرة للخلاص بنفسه، فمثله- كما يقول شفيق غربال- "ممن يمكنهم تصفية الحساب الماضي مع العثمانيين المنتصرين"، وإنما خرج لتحقيق مشروع خطير هو السعي لدى الحكومات الأوربية لتقرير استقلال مصر. فلقد فطن إلى عبرة الأحداث التي دارت والتي انخرط فيها منذ عهد علي بك الكبير، وأدرك أن دولة الترك لولا الفرنسيين لما انزاحت عن أرض مصر، ولولا الانجليز لما عادت لامتلاكها مقاليد السياسة. إذن لم تصبح في أيدي الأتراك والمماليك، بل أصبحت بين يدي هاتين الدولتين الأوربيتين القادرتين. هكذا تطورت تجربته الاقتصادية أولاً، والعسكرية ثانياً، إلى مشروع سياسي شامل.

كان من شروط معاهدة التسليم التي أبرمها الجنرال الفرنسي بليار مع قائد الجيش الإنجليزي وممثلي الدولة العثمانية (٢٧يونية ١٨٠١م) أنه "يحق لأي من سكان مصر على اختلاف أجناسهم إذا رغب اللحاق بالجيش الفرنسي في رحيله، أن يرحل معه، ولا يجوز بعد رحيله أن تؤذي عائلته أو تصادر أملاكه". وخصصت للمعلم يعقوب وعائلته- ولمن رضي من رجاله أن يتبعه- البارجة الإنجليزية "بالاس"Pallas

وما كاد حسين باشا القبطان يعلم في ميناء أبي قير بتأهب يعقوب للسفر حتى كتب إلى الجنرال بليار راجياً أن يثني يعقوب عن عزمه، مؤكداً عهود الأمان التي وردت في اتفاقية الجلاء، مغدقاً على يعقوب عفوه وحمايته، ومتذرعاً باستبقائه للانتفاع بخبرته في شئون الإدارة المصرية. ولكنه عبثاً ألح في طلبه، فسأل بليار أن يرسل إليه يعقوب شخصياً ليعطيه الضمانات الكافية في مقابلة خاصة. ورغم انعدام ثقة يعقوب في عدوه حسين باشا القبطان بعد أن حاربه لا مع الفرنسيين بل في موقعة المنشية قبل وصول الفرنسيين باثنتي عشرة سنة، فقد زاره ليبلغه إصراره على الرحيل. وأبحرت

---

[127] منسى يوحنا- القمص-"تاريخ الكنيسة القبطية"، طبع مكتبة المحبة سنة ١٩٨٣ م ص ٣٨٩- ٤٩٠

[128] أنور لوقا، المرجع السابق.

البارجة "بالاس" في السادسة والنصف من مساء يوم الاثنين ١٠ أغسطس سنة ١٨٠١م.

وفجأة يصمت يعقوب. مات على أثر إسهال حاد قضى عليه في اليوم السادس من الرحلة (١٦ أغسطس ١٨٠١م)، لا شك بفعل قدح القهوة التركية التي ضيفه بها حسين باشا القبطان قبيل سفره. وكانت البارجة بقرب جزيرة رودس. ولم يلق جثمانه في البحر كما تقضي بذلك تقاليد السفن بل حفظ- لمنزلته الخاصة- حتى ووري الثرى في جبانة "سان مرتان" بمرسيليا بعد تشييع جنازته في احتفال مهيب.

وعندما رست البارجة في ميناء طولون (١٧ سبتمبر) سلم "لاسكاريس"- مترجم يعقوب- مذكرة بمواد المشروع للربان جوزيف إدموندز الذي رفعها إلى حكومته مع رسالته الإيضاحية"[١٢٩].

الجيش القبطي في أوربا

أثبت ربان البارجة "بالاس" في تقريره عن ركابها أن عددهم بلغ ٣١٠، منهم ٨٠ فرنسياً، والباقون من الأقباط .

لم يحتمل بعضهم الغربة فرجعوا إلى مصر، حيث انتظرتهم سيوف الأتراك. وتفرع الذين استقروا بفرنسا ثلاثاً: طائفة التجار الميسورين الذين واصلوا الأعمال الاقتصادية واندمجوا في الطبقة الفرنسية الوسطى، وطائفة الفقراء الذين قررت الحكومة- بعد لأى- أن تصرف لهم إعانات ضئيلة، وطائفة العسكريين الذين استخدمهم نابليون في حروبه فبقى ذكرهم في سجلات الجيش، بينما تشح المعلومات عن المدنيين. ولكن المختصين "بالأنساب" من مؤرخي منطقة مرسيليا استخلصوا أخيراً من دراسة شهادات الزواج والوفيات حتى سنة ١٨٣٣م أن عدد أولئك الشرقيين ناهز الألف إذ ذاك ضمن أهل مرسيليا المائة ألف أي بنسبة ١٪.

---

[129] وقد نشر هذه الأوراق المؤرخ الفرنسي جورج دوان G.Douin في سنة ١٩٢٤م ، وكان شفيق غربال قد وقف عليها في محفوظات الخارجية البريطانية أثناء إعداد رسالته للدكتوراه، فترجمها إلى العربية ونشرها ملحقاً لدراسته بعنوان "الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١م" (دار المعارف ١٩٣٢). أنظر ملاحق الكتاب

قناصة الشرق

فرز ضباط نابليون مجموع من وصل من الرجال، واختاروا أحسنهم لتشكيل فرقتين: أطلقوا على الأولى اسم "المماليك" ورصدوا لهؤلاء الفرسان نفقات الجياد والزى الشرقي بالسراويل والصدريات المزركشة والعمائم الخضراء، فكانوا مفخرة الإمبراطور، ومنهم حرسه الخاص، وطليعة جنده عندما يدخل مدينة فتحها، وقوة عارمة في حروبه التي امتدت من جبال إسبانيا إلى ثلوج روسيا. وأطلقوا على الفرقة الثانية اسم "قناصة الشرق"، وهم من المشاة يرأسهم "نيقولا بابازوغلو" اليوناني، ونائبه العقيد "غبريال سيداروس" . وقد اختلط في كل من الفرقتين- وهما بضع مئات- الأقباط والشوام واليونانيون، ثم غيرهم من الأجانب والفرنسيين الذين لزم تجنيدهم لكثرة القتلى والمشوهين على مر السنين.

جنود مجهولون

ومات جنود مجهولون وردوا ساحات القتال، نقرأ ما بقى من بعض أسمائهم في محفوظات فانسين، وأهمها قائمة "المماليك" ولو أنها عجالة مقصورة على ٥٨٣ اسماً. فيروعنا أن نتبين ضمن من "فقدوا" أثناء انسحاب جيش نابليون من روسيا - في جليد نوفمبر وديسمبر ١٨١٢م- مصريين ولدوا تحت شمس القاهرة والصعيد مثل "أسعد عبد الملك" الذي حط في فرنسا صبياً وخاض المعارك منذ ١٨٠٨م، و"المملوك إبراهيم" المولود بأسيوط في سنة ١٧٨٣م، و"جرجس المصري" المولود بالقاهرة في سنة ١٧٩٢م، و"فرج تالوت" المولود بها والمجند منذ ١٨٠٨م.

ويستوقفنا "بولس بركة" المولود بالإسكندرية، فقد حارب على كل الجبهات، ورغم طعنة سيف أصابته في "فاجرام" سيق إلى روسيا حيث تجمدت خمس أصابع من قدمه اليسرى فأعيد إلى مستودع اللاجئين بمرسيليا.

وأحيل إلى الاستيداع "تادرس القبطي" و"يوسف واصف" من مواليد القاهرة، و"يوسف نخاخلي" المولود في فرشوط بعد إصابته بثلاث رصاصات في ١٨١٢م، و"توما المصري" ابن سعد ومريم بالقاهرة عقب إصابة قبضته اليمنى بالسيف في مشاجرة بإسبانيا، و"يوسف ميخائيل" المولود في أسيوط في سنة ١٧٨١م والذي أصيب بندبة في وجنته اليسرى.

وأما "ميخائيل المصري" المولود بالقاهرة في سنة ١٧٨٢م فقد استبسل في جميع معارك نابليون وكتبت له النجاة إلا في معركة "إيلو" حيث جرحت ذراعه، ولكنه رافق الإمبراطور إلى منفاه بجزيرة إلبا (١٤ ابريل ١٨١٤م).

وسام"جوقة الشرف" لقادة الفيلق

وذاب الأقباط في وسط المجتمع الفرنسي حيث أن الذين غادروا مصر كانوا رجالاً البعض منهم لم يكن لهم زوجات، والبعض الآخر لهم زوجات وتركوهم في مصر وضاعت أسماء أسرهم وألقابهم هناك وكان من بينهم كولونيل اسمه مكاريوس حنين، والكولونيل غبريال سيداروس، والكولونيل حنا هرقل (من مواليد منفلوط) والقومندان عبدالله منصور[130] (من مواليد القاهرة)، وأنضم الفيلق القبطي للجيش الفرنسي وحاربوا الروس في موقعة راجوز سنة ١٨٠٦م.

وقد اعترف إمبراطور فرنسا نابليون بونابرت ببسالة هؤلاء القادة ومنحهم وسام "جوقة الشرف"

تسريح الفيلق

.. أما باقي الفيلق فقد صدر الأمر بتسريحه من وزارة الحربية الفرنسية في ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٤م[131].

130 ويقول القس منسى يوحنا: " ويروى بعض الثقاة أن الخديوي إسماعيل استحضر مرة مجموعة من الممثلين والممثلات من فرنسا، وكانت بين هؤلاء الممثلات آنسة تعرف بمدام منصور نسبة إلى جدها الأدنى أو الأعلى المعلم منصور القبطي أحد المهاجرين من مصر في تلك الديار" منسى يوحنا- القمص- "تاريخ الكنيسة القبطية"، مكتبة المحبة سنة ١٩٨٣م، ص ٣٨٩- ٤٩٠.

131 لجنة التاريخ القبطي- "الجنرال يعقوب"- ص ٧٧- ٧٩

الملحق الأول:

المخططات الواسعة لفصل القبط عن المسلمين

عادل جندي - السبت -١يوليو ٢٠٠٦

نشرت صحيفة قومية مصرية كبرى[1] بتاريخ ٢٩ مايو تحقيقا لمراسلها في باريس حول العمل العلمي الضخم لتجميع كل مراسلات نابليون في مجلدات يخص كلّ منها مرحلة من حياته الحافلة، وإن كانت قصيرة إذ دامت ٥٢ عاما فقط. المجلد الثاني، الذي يقع في ١٢٧٠ صفحة وعنوانه "حملة مصر ومقدماتها"، صدر في مارس ٢٠٠٥ ويشمل ٢٥٥٠ رسالة تغطي الفترة من يناير ١٧٩٨ إلى آخر ديسمبر ١٧٩٩. والمعروف أن نابليون قد دخل الاسكندرية على رأس الحملة الفرنسية في ٢ يوليو ١٧٩٨ وغادرها سرا، مع مجموعة صغيرة من المقربين، في ٢٣ أغسطس ١٧٩٩ بعد أن أدرك أن ما يجري في فرنسا أهم بكثير بالنسبة لمستقبله السياسي. وقد وصل باريس في ١٦ أكتوبر، وبعد أقل من شهرين، أصبح مساشارا (قنصلا) أول في مجلس حكم ثلاثي الأعضاء. ويغطي المجلد الثالث الذي صدر في أبريل ٢٠٠٦ الفترة من يناير ١٨٠٠ حتى نهاية ١٨٠١.

هذه الوثائق تمثل كنوزا هائلة تستحق جهود الغوص فيها بحثا عن معلومات واتجاهات وأفكار ودروس، حتى لو بدا ذلك ابتعادا عن الحاضر، وقد تكون لنا عودة إليها.

التحقيق الصحفي المذكور لا يخلو من معلومات صحيحة... بل منها ما هو أيضا شائق ومفيد!! لكن كان من اللافت للنظر هذه الفقرة:

[(..) وتكشف الوثائق عن وجود مراسلات بين المعلم يعقوب قائد كتيبة الأقباط وجرجس الجوهري أحد أعيان أقباط مصر، وهي خطيرة لأنها تكشف عن مخططات واسعة المدي للفصل بين أقباط مصر ومسلميها (الرسالة رقم ٣٨٧٢ بتاريخ ٧ ديسمبر ١٧٩٨)].

يا للهول! ها هم القبط منذ أكثر من قرنين يسعون "للاستقواء" بالأجنبي ورسم المخططات الواسعة المدى مع أعداء الوطن بهدف الفصل بين أقباط مصر ومسلميها وشق الوحدة الوطنية.

نظرا لخطورة مثل هذه العبارة الملغومة رجعنا بالتفصيل إلى وثائق المجلد الثاني. وسنحاول هنا (فيما عدا السهو نظرا لغزارة المعلومات وتشعبها) معالجة الموضوع عن طريق الرد على عدد من التساؤلات:

السؤال الأول: ما هو موقف الأطراف المختلفة من الحملة الفرنسية، ومن كان يقاومها؟

الواضح أن عدو نابليون الرئيسي كان الانجليز؛ وقد قام هؤلاء بتحطيم أسطوله في معركة أبو قير البحرية في أول أغسطس بعد أقل من شهر من دخوله الإسكندرية، وقاموا بتأليب الباب العالي (الإمبراطورية العثمانية) ضده وكذلك قاموا بتأليب المماليك بداخل

[1] الأهرام ٢٩ مايو ٢٠٠٦ م السنة ١٣٠ العدد ٤٣٦٣٨

البلاد. وهناك أسباب كثيرة وراء كل ذلك من بينها المنافسة التقليدية داخل أوروبا بين القوتين، والمخاوف من تأثير الحملة على الطريق إلى الهند، وكذلك التوجس بصفة عامة من مطامع الجنرال الفرنسي الطموح في الشرق.

أما في الداخل، فالعدو الرئيسي كان المماليك الذين قاوموا الحملة الفرنسية بشراسة وعنف شديد. ولا غرو في ذلك، لأن هؤلاء الذين كانوا قد استُجلِبوا كخدم وعبيد وجنود مرتزقة على يد حكامٍ مسلمين لا يثقون بعضهم في البعض، وصل الأمر بهم إلى الاستيلاء على الحكم (الفعلي على الأقل)، في سابقة يندر لها مثيل في تاريخ العالم. وإذ أصبحت مصر عزبة وتكية منهوبة لهم، لا يمكن لعاقل تصور تنازلهم بسهولة عنها. وقد أعلن نابليون مرارا وتكرارا في رسائله للشعب وزعمائه من علماء الدين وكبار التجار وكذلك في رسائله للباب العالي، أن هدف حملته هو تأديب المماليك. وبعد انتصار الفرنسيين الأولي واستيلائهم على مصر هربت مجموعتان رئيسيتان من المماليك؛ الواحدة بزعامة مراد بك رحلت جنوبا في الصعيد وطوردت حتى أسوان؛ والأخرى بزعامة إبراهيم بك ذهبت للشرقية ثم إلى غزة وفلسطين واستعانت بالحاكم العثماني هناك. وقد نجحت الحملة الفرنسية في كسر شوكتهم إلى حد بعيد. ولا بد أن نذكر هنا أن ما بدأه نابليون أكمله بعده محمد على، إذ كان التخلص من المماليك شرطا لازما لمشروع إقامة دولة حديثة في مصر.

العدو الداخلي الثاني لنابليون كان "العرب". وهم قبائل من البدو يعيشون في مناطق خاصة بهم، مثل شرق الدلتا وحافة الوادي في الصعيد، ولا يختلطون بالأهالي إلا أثناء ممارساتهم لهواياتهم المفضلة من عمليات سلب ونهب وقتل وأخذ رهائن. وقد حاربوا نابليون بشراسة، ولكنه نجح في كسر شوكتهم، وفي أحيان كثيرة في استمالتهم وشرائهم عن طريق المال أو استخدامهم للمساعدة في نقل الرسائل والتجسس، خصوصا عندما بدأ حملته إلى فلسطين لمطاردة إبراهيم بك.

لم يقم العثمانلية، ممثلو دولة الخلافة التي تتبعها مصر، بمقاومة تذكر نظرا لانعدام الأوامر الآتية من الآستانة (اسطنبول)، بسبب ضعف وتخبط الدولة. وعلى أي حال لم يعاملهم نابليون كأعداء، بل بالعكس تحاشى بكل وسيلة الاحتكاك بهم وحاول استمالتهم داخليا، وكذلك خارجيا عبر رسائل متكررة إلى رئيس الوزراء التركي. وعندما قاموا أخيرا بحملة بحرية وعملية إنزال في "أبو قي"ر، انتصر عليهم نابليون انتصارا ساحقا في ٢٥ يوليو ١٧٩٩.

أما الشعب المصري بكافة فئاته فمن الواضح أنه، بصفة عامة، وإن لم يرحب بنابليون فعلى الأقل لم يقاومه بصورة تذكر. فلا شك أن الغالبية، حتى وإن كانوا قد فوجئوا بغزو من الفرنجة، إلا أنهم قد رأوا فيه فرصة للتخلص من المماليك والعثمانيين على حد سواء. ومحاولات بعض المُحدَثين خلع على ما فعله المماليك أو البدو الأعراب أوصافَ "المقاومة الشعبية للغزو الخارجي" لا تختلف كثيرا عن محاولات خلع نفس الأوصاف على أفعال الزرقاويين وأمثالهم بالعراق. وحتى مع اختلاف الدوافع (الجشع عند البعض، والهوس الديني عند الآخر) فلكي يصبح أمرٌ ما "وطنيا"، ينبغي أن يتحلى بصفات أكثرها بداهة أن يكون عملا في صالح "الوطن" و "المواطنين".

ومن ناحيته حاول نابليون بكل وسيلة استمالة الشعب وزعمائه، خاصة رجال الدين وكبار التجار. وهناك العديد من الرسائل التي تبين تعاون هؤلاء معه.

السؤال الثاني: ماذا كانت أوضاع الأقباط وطبيعة العلاقة بينهم وبين المسلمين عند دخول نابليون؟

يقول نابليون في رسالته إلى المعلم جرجس الجوهري رقم ٣٨٧٢ بتاريخ ٧ ديسمبر ١٧٩٨: **[(..) بعد اليوم لن تكون (الأمة القبطية) محتقرة؛ وعندما تسمح الظروف، وهو ما أتوقع ألا يكون بعيدا، سوف أعطيها الحق في ممارسة طقوس العبادة بصورة علنية، كما هو مألوف في أوروبا، بين أتباع كل معتقد. سوف أعاقب بشدة القرى التي اغتيل فيها أقباط أثناء عمليات تمرد. واعتبارا من اليوم يمكنكم إخبارهم (الأقباط) أنني أصرح لهم بحمل السلاح، وركوب البغال أو الخيل، ولبس العمائم وارتداء الملابس بالطريقة التي تحلو لهم (..)].**

الواضح من هذه الكلام أن الأقباط كانوا يعيشون آنذاك تحت الوضعية الهمجية الحقيرة التي يُطلق عليها "الذمية" حيث ليس لهم الحق في ممارسة طقوس عبادتهم بصورة علنية، وحيث يتعرضون لاعتداءات وحشية بدون ذنب، وحيث يُحظر عليهم حمل السلاح وركوب الخيل والبغال ولبس العمائم؛ إلى آخر قائمة القيود الإذلالية الواردة في العهدة العمرية، والتي أخضِع الأقباط لها منذ دخول العرب.

ومن ناحية أخرى نجد أن المماليك (كما يقول محررو المجلد في حاشية نفس الوثيقة) كانوا لا يَأتمِنون على إدارة الأملاك الخاصة والعامة سوى الأقباط، ولذلك كان مباشرو الضرائب ـ بصفة عامة ـ منهم. ولا بد من التنويه أن دور هؤلاء كان ينحصر في النواحي الإدارية من تقدير ضرائب وحفظ سجلات ومتابعة التحصيل؛ بينما كانت عملية التحصيل الفعلية يقوم بها الملتزمون (عادة من المماليك) الذين كانوا يُحَصلون مبالغ أكثر من المفروض (أحيانا ثلاثة أو أربعة أضعاف) ويحتفظون لأنفسهم بما يزيد عما يورد لخزينة الدولة.

ويبين ما سبق أن الأقباط كانوا يعيشون في ازدواجية غريبة الشأن: فمن ناحية يخضعون لإذلال الذمية، ومن ناحية يقوم بعض الأفراد منهم بأدوار (غالبا مهنية) في خدمة الحكام. ولا يملك المرء سوى ملاحظة أن هذه الظاهرة استمرت دائما، ومازالت ...

السؤال الثالث: هل تغيرت أوضاع الأقباط أثناء وجود الحملة الفرنسية؟

بالرغم من العبارة السابق ذكرها في رسالة نابليون للمعلم الجوهري والتي يقول له فيها أنه "يمكنه إخبار الأقباط" بالسماح لهم بممارسة بعض المظاهر الآدمية؛ لكن الحقيقة، في الواقع، هي التالي:

ـ لم يقل نابليون في رسالته أن للأقباط الحق "فورا" في ممارسة طقوس العبادة بصورة علنية، بل فقط أنه سيعطيهم هذا الحق "عندما تسمح الظروف، وهو ما أتوقع ألا يكون بعيدا". فإحداث مثل هذه التغييرات، حتى وإن كانت بديهية، في أمة لازالت تعيش في غياهب الظلمات، يشبه الدخول إلى جحر أفاعي، بينما الهدف الأهم بالنسبة له هو نجاح الحملة واستقرار الحكم واستتباب الأمن.

ـ في نفس الرسالة نجد نابليون يعيب على الأقباط ضعف مساندتهم للحملة الفرنسية مقارنة بغيرهم من المصريين: [(..) لا يمكنني أن أخفي عليكم أنني، في الواقع، أشكو من قلة الحماسة التي أظهرها الكثيرون (من الأقباط). فبينما يأتي إلي كل يوم كبار الشيوخ ليكشفوا لي كنوز المماليك، كيف إذن أن أولئك الذين كانوا الوكلاء الرئيسيين القائمين على (تلك الكنوز) لا يفعلون شيئا لمساعدتي على اكتشافها (..)].
ـ لم نجد رسالة واحدة يأمر فيها نابليون بصفة رسمية من قواده أو من حكام الأقاليم بأي تغيير يتعلق بالأقباط، وبالتالي فإن ما قاله في رسالته هذه هو فقط من قبيل إبداء النيات الطيبة.
ـ استمر نابليون في استخدام الأقباط كمباشري ضرائب كما كان الحال أيام المماليك. وبعد تعيين المعلم الجوهري مباشرا عاما على مصر (وهو الذي كان يقوم بدور شبيه مع كبار المماليك قبل الحملة) قام بتعيين ثلاثة على أقاليم الجيزة ومنوف والمنصورة (رسالة ٢٦٩٨ بتاريخ ٣١ يوليو ١٧٩٨ إلى الجوهري)، وكذلك خمسة على الإسكندرية ورشيد ودمياط وأطفيح والشرقية (رسالة ٢٧٢٥ بتاريخ ٢ أغسطس ١٧٩٨- إلى الجنرال بيرثييه رئيس أركان الحرب) وعين المعلم يعقوب مباشرا على بني سويف والفيوم.
ـ استمر نابليون في فرض ضرائب خاصة وإضافية على "الأقباط" كفئة، كما هو واضح مثلاً من الرسالة ٢٧٥٣ ـ بتاريخ ٣ أغسطس ١٧٩٨ الموجهة إلى المعلم الجوهري حيث يطلب منه [(..) أن يكلف كلا من المعلم ملطي وأنفورني وحنين وفادوس بتحصيل المبلغ الذي طلبتُه من الأمة القبطية. وألاحظ مع الأسف أنه مازال يتبقى ٥٠ ألف تالاري متأخرات؛ وأريد أن يتم إيداعها في ظرف خمسة أيام في خزينة الجيش]. وإن كان قد أضاف عبارة: [يمكنكم طمأنة الأقباط بأنني سأضعهم في مكانة لائقة عندما تسمح الظروف]، إلا أنه من الواضح أنها ليست أكثر من محاولة استمالة أو مجاملة. وفي الرسالة رقم ٣٢٩٤ بتاريخ ٢١ سبتمبر- إلى بوسييلج، مدير الشئون الإدارية والمالية للجيش (ومصر)، يُذكره بمتأخرات من تجار الحرير الدمشقي قدرها ٨،٣٠٠ تالاري، وتجار القهوة (٣٢،٠٠٠) والأقباط (١،٠٠٠) وزوجات المماليك الهاربين (٢٤،٠٠٠). ويطلب الإسراع في الدفع. (التولاري عملة فضية من جنوا، كان استعمالها منتشرا آنذاك، وكانت تساوي ٥،٢٨ فرنك فرنسي).
ـ لم يقم نابليون حتى بإلغاء "الجزية" المفروضة على الأقباط، إذ نجد في ملخص ميزانية الدولة الذي قامت به الإدارة الفرنسية للبلاد- كما أورده محررو المجلد- بنداً خاصاً "للضرائب على غير المسلمين" إلى جانب ضرائب الأرض والتجارة والصناعة والجمارك.
ـ لم يتورع نابليون عن وصف الأقباط بما لا يليق في إحدى الرسائل. فقد اشتكى حاكم الشرقية الجنرال رينييه من تصرفات مباشر الضرائب القبطي في الإقليم، المدعو فلتاؤوس، فرد عليه نابليون (رسالة ٣١٣٠ ـ ١٠ سبتمبر ١٧٩٨) قائلا: [أبلغتُ المباشرَ العام على الضرائب (الجوهري) بأنك لم تكن راضيا على الإطلاق عن (المباشرين) الأقباط. إنهم أناس لئام في البلاد، ولكن ينبغي مراعاتهم لأنهم الوحيدون الذين في يدهم

مجمل الإدارة للبلاد. لقد حصُلتُ منهم على سجلات هائلة حول قيمة الضرائب المفروضة].
- بالطبع كل ما ذكرناه لا يغير من حقيقة الزلزال الهائل الذي أحدثته الحملة الفرنسية في مصر والتي بدأت آثارها من كافة النواحي تتضح خصوصا بعد انتهائها وبدء حكم محمد على.

السؤال الرابع: ماذا عن الرسائل بين يعقوب والجوهري؟

بمراجعة الوثائق حتى نهاية ١٧٩٩ لم نجد أي معلومات مباشرة بشأن رسائل متبادلة بين المعلم يعقوب والمعلم جرجس الجوهري. وإن كان يمكن عن طريق التخمين الزعم بأن شخصا ما، كالمعلم يعقوب أو غيره، قد بعث إلى نابليون عبر المعلم الجوهري، باعتباره أعلى الأقباط وظيفيا، رسالة بشأن أحوال الأقباط في البلاد؛ وهي التي قام بالرد عليها في الرسالة التي ناقشناها أعلاه، وهي الوحيدة التي رأينا فيها كلاما يتعلق بأوضاع الأقباط بصفة عامة.

بل إن المعلم يعقوب شخصيا لم يُذكر إلا في رسالة واحدة من نابليون، وبصورة غير مباشرة (وثيقة ٢٨٧٥ بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٧٩٨ إلى بوسييلج) يقول فيها: [أرجو تعيين مباشر ضرائب قبطي (١) وموظف فرنسي في كل من أقاليم بني سويف والفيوم ليذهبا هناك مع الجنرال ديزيه الذي سيغادر غدا.

وتذكر الحاشية (١) من لجنة التحرير أن المُعني به هو: "يعقوب؛ وهو الذي سيبدأ بهذا سجلا لامعا في مساعدة الفرنسيين"].

وواضح من هذا أن يعقوب كان عندئذ مجرد مباشر ضرائب مثل غيره. ولا ننوي هنا مناقشة ما فعله الرجل، فهذا مبحث آخر يحتاج لمصادر ومراجع أخرى. وهناك من النظريات ما تذهب إلى أنه كان صاحب مشروع وطني تحصل بمقتضاه مصر - بمساعدة من القوى العظمى في وقته- على استقلالها من الدولة العثمانية وتتخلص من سطوة المماليك. وهذا بالضبط ما حاول محمد على القيام به بعد ذلك بسنوات قليلة.

وعلى أي حال فإن دور يعقوب الحقيقي بدأ بعد رحيل نابليون، أثناء فترة قيادة كليبر؛ كما يقول عنه فهرس الشخصيات في نهاية المجلد: **[يعقوب الصعيدي (١٧٤٧-١٨٠٣): قبطي، مباشر ضرائب لدى زعماء المماليك قبل وصول الفرنسيين، يضع نفسه في خدمتهم ويصبح منظما لمالية حملة ديزيه في مصر العليا (الصعيد)، لاعباً- من ناحية أخرى- دوراً كبيراً في تشكيل قسم معلومات للفرقة. وعندما أصبح كليبر قائداً عاماً، عينه قائدا للكتيبة القبطية، بعد التمرد الثاني بالقاهرة].** وبالتالي فإن رسائل نابليون أثناء وجوده في مصر لا يمكن أن تعكس مثل هذا الدور.

السؤال الخامس: ماذا عن "المخططات واسعة المدى للفصل بين أقباط مصر ومسلميها"؟

فلنعد إلى نص رسالة نابليون إلى المعلم الجوهري التي عرضنا أجزاء منها أعلاه:

[تسلمت، أيها السيد، الخطاب الذي وجهَته الأمةُ القبطية إليّ. سوف يسعدني أن أحميها. بعد اليوم لن تكون محتقرة؛ وعندما تسمح الظروف، وهو ما أتوقع ألا يكون بعيدا، (...الخ الفقرة السابق ذكرها).

لكن، إذا كنتُ أحسن الصنيع، وإذا كان عليّ أن أعيد للأمة القبطية الكرامة والحقوق التي لا يمكن فصلها عن الإنسان، والتي كانت قد فقدتها، فإنه لديّ الحق بدون شك في أن أطالب أبناءها بالكثير من الحماسة والإخلاص في خدمة الجمهورية (الفرنسية).

لكن لا يمكنني أن أخفي عليكم أنني، في الواقع، أشكو من قلة الحماسة التي أظهرها الكثيرون (من الأقباط). بينما يأتي إلي كل يوم كبار الشيوخ ليكشفوا لي كنوز المماليك، كيف إذن أن أولئك الذين كانوا الوكلاء الرئيسيين القائمين على (تلك الكنوز) لا يفعلون شيئا لمساعدتي على اكتشافها؟

أنوه ببطريرككم، الذي أعرف فضائله وحسن نواياه. أنوه بحماستكم ومساعدتكم وأتمنى أيضا أن أمتَدَح من الأمة القبطية كلها (..)].

لا نعلم إن كان عرض نابليون "بحماية" الأقباط من عندياته، أو جاء بناء على طلب في الرسالة الموجهة إليه، غالبا يشير إلى حماية أمنية أثناء الفوضى الحادثة، خاصة وأنهم عزل من السلاح بحكم الذمية. لكن المهم إدراك:

أولا: أن الأقباط- كما هو ثابت على مدى التاريخ- لم يحدث أن طلبوا أو قبلوا حماية دولة أجنبية؛

وثانيا: أن نابليون، كما أوضحنا أعلاه، لم يفعل شيئا على سبيل تغيير أوضاع الأقباط نحو الأفضل؛

وثالثا: وهو الأهم، فإن مطالب الأقباط الحقيقية، التي من الواضح أن نابليون قد كررها في رسالته، كانت لا تزيد عن ألا يكونوا محتقرين وأن "تعود لهم الكرامة والحقوق التي لا يمكن فصلها عن الإنسان".

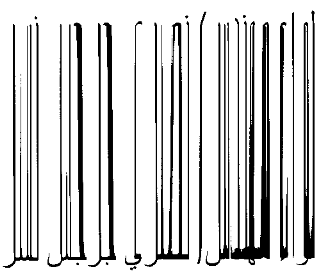
لماذا يجد البعض في هذه الأمور البسيطة "مخططاً واسع المدى للفصل بين الأقباط والمسلمين"؟ وهل العلاقة الوحيدة الممكنة بينهما تدور حول "الحذاء" : أحد الطرفين يرتديه، والآخر تكون رقبته تحته؟ ولماذا ـ بهذه المناسبة ـ مازال الأقباط بعد قرنين من الزمان يطالبون بحقوق بديهية؟ بل إنه عند أخذ الخلفية السياسية والحقوقإنسانية العالمية في الاعتبار، فكيف إن أوضاعهم اليوم لا تختلف كثيرا عما كانت عليه أيام المماليك؟

قد يقول قائل ما الداعي لإضاعة الوقت والجهد في الرد على عبارة مسمومة في تحقيق صحفي، توجد مثيلاتها كل يوم؛ وما هو الجديد الذي أتينا به في هذا المقال، أكثر من إثبات القاعدة الذهبية الأولى بشأن الإعلام المصري وهي أنه "إعلام كاذب إلى أن يثبت العكس"، والقاعدة الثانية وهي أنه "إعلام مغرض إلى أن يثبت العكس" (بغض النظر عن استثناءات باهرة؛ ولكنها لا تنفي، بل تثبت، القاعدة)؟

الجديد، الذي ليس بجديد في الواقع، هو أنها دليلٌ آخر على استشراء الطالبانية في مصر لدرجة اختراق مفاصل الذهن والنفس والروح وحتى النخاع.

الملحق الثاني:

الأدلة التاريخية على وطنية الجنرال يعقوب



لقد كان من الممكن أن يظل دور الجنرال يعقوب في محاولته للحصول على استقلال مصر مجهولاً وتظل ذكراه ملطخة على اعتبار أنه خائن لوطنه ساعد الفرنسيين وهرب معهم بعد انسحابهم إلى فرنسا لولا عثور بعض رجال التاريخ المصريين أثناء دراساتهم بالخارج على بعض الوثائق التاريخية[1] وقاموا بترجمتها ونشرها ضمن مؤلفاتهم جعل من الممكن لنا إعادة تقييم دور المعلم يعقوب وما كان يهدف إليه.

وفي بحثه المتميز يعقد د.شفيق غربال مقارنة بين المعلم يعقوب والشيخ عمر مكرم فيقول: "يعقوب يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبي الذي تسهل إثارته ولا يسهل كبح جماحه والذي قد يصل سريعا لتحقيق أغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسي الدائم المثمر. هذا الفرق بين الأداة التي اختارها يعقوب وتلك التي اختارها السيد عمر ليس في الواقع إلا مظهراً لفروق أعمق. إذ ما حاجة هذا السيد نقيب ألأشراف (يقصد عمر مكرم) إلى جيش والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان العثماني ولا يرمى إلى أبعد من أن يملى إرادته على القائمين بالأمر مدافعاً عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد! وهو لهذا يكفيه قيام (يقصد ثورة) أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء. أما يعقوب فله شأن آخر إذ أنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد في تقرير مصير البلاد بدلا من أن يبقى حظهم كما كان في الحوادث الماضية مقصورا على التفرج أو الاشتراك في نهب المهزومين، وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية وهذا ما أدركه محمد على بعد قليل".

وهذا يقودني إلى تساؤل طالما تساءله الأستاذ الكاتب الصحفي الكبير جمال بدوى حينما يستعرض تاريخ مصر سواء في كتاباته الصحفية أو برامجه التليفزيونية حيث يبدى دهشته من موقف السيد عمر مكرم بعد خروج الحملة الفرنسية ويتساءل "لماذا لم يحاول عمر مكرم كمصري حكم مصر بل بالعكس عمل على أن تعود مصر للحكم العثماني؟"

---

[1] وهذه الوثائق هي أربعة خاصة بهذا المشروع اكتشفت في سجلات وزارتي الخارجية الإنجليزية والفرنسية: الأولى كتاب بالانجليزية من القبطان إدموندوس للورد الأول للبحرية الانجليزية مؤرخ في٤أكتوبر ١٨٠١م يتضمن أحاديثه مع المعلم يعقوب في الطريق إلى فرنسا. الثانية مذكرة مشروع استقلال مصر مكتوبة بالفرنسية بواسطة الفارس لاسكاريس وملحقة بالكتاب السابق ذكره. والوثيقتان موجودتان في أوراق وزارة الخارجية الانجليزية في المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية تحت رقم (Sept.-Dec.1801) F.O.78Turkey33 الثالثة خطاب بتاريخ ٢٣سبتمبر ١٨٠١م من لاسكاريس موقع عليه من شخص يدعى نمر أفندي للقنصل الأول لفرنسا. الرابعة- بنفس التوقيع والتاريخ- وموجهة إلى تاليران وزير الخارجية الفرنسية. والوثيقتان في سجل المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية في وزارة الخارجية الفرنسية في المجلد رقم ٢٠٣ نقلهما المسيو أوريان في مقالة عن لاسكاريس في مجلة Mercure de France بتاريخ١٥يونيو ١٩٢٤م.

لعله يجد في تحليل د. شفيق غربال الرد على تساؤله: "وكان في حديثه مع إدموندز يعتقد أن حكم العثمانيين في مصر أسوأ أنواع الحكم وأنه لم يؤيد الاحتلال الفرنسي إلا لتقليل ما حاق بمواطنيه من أذى ويرجو أن يسعى لدى الحكومات الأوربية لتحقيق استقلال بلاده وأن هجرته لأوربا هي السبيل إلى ذلك. وقد كتب إدموندز إلى اللورد سانت فنسانت وزير البحرية الانجليزية رسالة بمضمون الحديث الذي دار بينه وبين الجنرال يعقوب موضحا أنه ما انضم إلى الفرنسيين إلا بدافع الوطنية لتخفيف آلام إخوته المصريين.

اشتد عليه المرض وتوفي على ظهر السفينة في١٦أغسطس١٨٠١م وبناء على رغبة أهله لم تلق جثته في البحر بل وضعت في دن من الروم حتى الوصول إلى مرسيليا حيث دفن.

ويوجد في بحث[٢] د. شفيق غربال النص الكامل للأربعة وثائق السابق الإشارة لها لمن يريد الاطلاع عليها كاملة، ويمكن تلخيصها كما كتب عنها الأستاذ محمد صبري في كتابه "تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث" الآتي "نشرت الجمعية الجغرافية حديثا وثائق جديدة كانت في أوراق الخارجية البريطانية تحت عنوان"مصر المستقلة- مشروع سنة١٨٠١م" يقول مسيو جورج دوان في المقدمة... أن هذه الوثائق تدل على أن فكرة الاستقلال المصري التي نشأت في كنف حملة بونابرت قد أشرق نورها في نفوس المصريين في مستهل القرن التاسع عشر، فإن أحدهم وهو المعلم يعقوب القبطي قد تصدى للترجمة عما في ضميرهم لو لم تصبه ميتة عاجلة في أغسطس١٨٠١م حالت بينه وبين الدفاع عن قضيته أمام حكومات أوربا.

بارح يعقوب مصر على رأس وفد مصري حيث كان يسمى نفسه ومن معه "الوفد المصري" وكانت فكرته الأساسية مخاطبة انجلترا أولاً في الأمر لأن هذه الدولة لها مصلحة أكثر من أي دولة أخرى في نجاح مشروع استقلال مصر ذلك أن انجلترا تملك ناصية البحار وفي وسعها أن تمنع فرنسا من أخذ مصر ولكنها إذا حاولت هي نفسها أن تغزو مصر فستعترضها أول دولة عسكرية في القارة الأوربية وهى فرنسا، ولا ريب أن استقلال مصر هو الوسيلة الوحيدة التي تقف في وجه الدولتين المتنافستين".

إذن كان محور نظرية الجنرال يعقوب التي كان ينوى طرحها لو امتد به العمر كما يشرحه د.عوض هو أن استقلال مصر في مصلحة انجلترا لأنها سيدة البحار فهي تستطيع أن تمنع بأساطيلها فرنسا من الاستئثار بمصر، ولكن إن حاولت غزو مصر فإنها ستصطدم بفرنسا أكبر قوة عسكرية في أوربا فمصر المستقلة هي الحل الوحيد الذي يوفق بين مصالح انجلترا وفرنسا، بالإضافة إلى استفادة الانجليز من تجارتهم البحرية التي ستنتفع من زراعة مصر التي لا يمكن أن تزدهر إلا في ظل السلام كما ستنتفع من منتجات أفريقيا التي تعد مصر بابها الطبيعي ولكي تطرد انجلترا فرنسا من مصر يتحتم عليها طرد تركيا نظرا للعلاقات الودية التي بين تركيا وفرنسا. وهو يرى أن طول استعباد المصريين تحت نير الترك والمماليك حرم مصر من تكوين رأى عام بصير يمكن

---

[٢] المطبوع بمطبعة المعارف/ شارع الفجالة بالقاهرة سنة١٩٣٢م

أن ينتج عمل سياسي يغير نظام الحكم ولذا فانه يرى أن أي تغيير لابد وأن يأتي من قمة الحكم أي من الحاكم .

ويوضح الجنرال يعقوب كيف يمكن للمصريين أن يحموا هذا الاستقلال؟ بقيام حكومة

وطنية يكون هدفها الأول تحسين حال الفلاحين، والمحافظة على استقلالها في المرحلة الأولى مبنى على موافقة الدول الأوربية وإذ لم يحل ذلك دون عدوان الترك والمماليك فلا مانع من وجود قوة أجنبية مرتزقة من ١٢إلى ١٥ألف تكون نواة للجيش المصري.

ويظن بعض المؤرخين ومنهم جورج داون أنه لولا وفاة الجنرال يعقوب- وهو الشخصية الوحيدة ذات الهيبة بين أعضاء الوفد- لاستمع بونابرت إلى مشروعه وربما نتج عن ذلك تغير في النصوص الخاصة بمصر في معاهدة اميان التي وضعت مصر نهائيا تحت سيادة الباب العالي.

هناك من يشكك في هذا الرأي على أساس: هل كانت هذه الفكرة فرنسية لتحييد مصر وإبعاد انجلترا عنها وسلخها من تركيا؟ يناقش ذلك بتفصيل الدكتور لويس عوض في كتابه "تاريخ الفكر المصري الحديث- الجزء الأول- الخلفية التاريخية" كتاب الهلال فبراير ١٩٦٩م، كما يناقش التباين في موقف كل من عمر مكرم والجنرال يعقوب ويأخذ موقفا وسطا فهو لا يفترض أن كل موقف عمر مكرم نابع من العقيدة الدينية الإسلامية ولا كل موقف الجنرال يعقوب نابعا من شعور الأقلية بالإهمال والازدراء فيقول "ربما كان للشعور الديني دخل في تكوين هذا الموقف أو ذاك ولكن المبالغة في تصوير أثر هذا الشعور الديني في تكوين القيم الوطنية لا محل له في الأحكام التاريخية الموضوعية".

ويستنتج د. عوض استنتاجا هاماً- وإن كان من وجهة نظري يخضع للمناقشة- حيث يقول "إن كل كلمة في مشروع الجنرال يعقوب تشير إلى ضرورة محمد علي (يقصد ظهور محمد علي على مسرح الأحداث) في السياسة الدولية وحتمية محمد علي التاريخية بما في ذلك الاعتماد على الانكشارية الأجنبية وعلى الخبرات الأجنبية وعلى تكوين قوة حضارية مصرية لتدعيم السيادة المصرية بما في ذلك الانقضاض على المماليك والباب العالي ثم الانقضاض على الدول الأوربية نفسها بعد تكوين الجيش الوطني، فهل يمكن القول بأن محمد علي كان عميلاً للسياسة الفرنسية حتى يمكنا أن نقول أن الجنرال يعقوب ووفده الاستقلالي كانوا أيضاً وبنفس المعنى عملاء للسياسة الفرنسية؟"

المعلم هي التسمية الأكثر واقعية لمصري لا غش فيه، وعلينا أن نمعن النظر والفكر ونربط بين محاولة المعلم يعقوب لحصول مصر على استقلالها وبين ما قام به الزعيم مصطفي كامل بعد قرن كامل و سفره إلى فرنسا لشرح قضية استقلال مصر، هل يمكننا أن نقول أن مصطفي كامل اقتفي أثر المعلم يعقوب؟

كذلك هل هي مصادفة أن يسمى الجنرال يعقوب ومن معه "الوفد المصري" قبل ظهور الوفد المصري برئاسة سعد زغلول بحوالي مائة عام الذي كان للأقباط فيه أيضا دوراً رئيسياً وهو الذي وضع- رغم ظروف الاحتلال الانجليزي ومقاومة الملك فؤاد- أفضل دستور مصري وضع حتى الآن وكان سببا لانتعاش الفترة الليبرالية في مصر والتي ما زلنا نتحسر عليها؟!!

أتوقع أن تثير هذه المقالة الكثير من الاختلاف في الآراء حيث لا يتفق قطاع كبير من أهل الرأي مع ما جاء بها، ولكن يا ليتها تكون فرصة للحوار بشرط أن يكون بنّاءً وعلمياً يستند إلى وقائع التاريخ الموثقة كخطوة لإعادة كتابة تاريخنا الوطني- كما حدث فعلاً- بحلوه ومره وبدون تجميل لأني أرى أننا في أشد الحاجة لذلك لأنه هو الطريق المضمون للتأكيد على هويتنا الحقيقية وقطع الطريق أمام المتطرفين.

فهرس

الباب الثالث

ملاحق:

.. هذا الجيش:
"إنه أول جيش كون من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة"..
"لقد كان وجود الفرقة القبطية أول شرط أساسي يمكن رجلا من أفراد الأمة المصرية- (المعلم يعقوب حنا)، يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة- من أن يكون له أثر في أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادا،
"وبغير هذه القوة (الجيش) يبقى المصريون حيثما كانوا بالأمس: الصبر على مضض، أو الالتجاء لوساطة المشايخ، أو الهياج الشعبي الذي لا يؤدى لتغيير جوهري، والذي يدفعون هم ثمنه دون سواهم.
.. هذا الجيش:
".. يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد في تقرير مصير البلاد بدلا من أن يبقى حظهم كما كان في الحوادث الماضية مقصورا على التفرج أو الاشتراك في نهب المهزومين".

محمد شفيق غربال